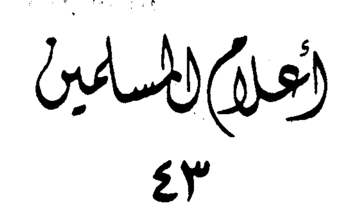


٤٣



حُجَّةُ الإسلام ومُجَدِّدُ المِئَةِ الخامِسَة

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ)

بقـلم

صالح أحمد الشّامي

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

هذا الرجل

● (الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد، صاحب التصانيف والذكاء المفرط).

الإمام الذهبي

● (برع في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، فكان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه).

الحافظ ابن كثير

● (الغزالي بحر مغدق).

شيخه: إمام الحرمين

● (حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، لم تر العيون مثله).

معاصره: الحافظ عبد الغافر الفارسي

● (إمام الفقهاء على الإطلاق، وربانيَ الأمة بالاتفاق، مجتهد زمانه.. قام بنصر السنة، وإظهار الدين).

الحافظ ابن النجار

● (رأيت الرجل وكلمته، فرأيته رجلاً من أهل العلم، قد نهضت به فضائله، واجتمع فيه العقل والفهم، وممارسة العلوم طول زمانه).

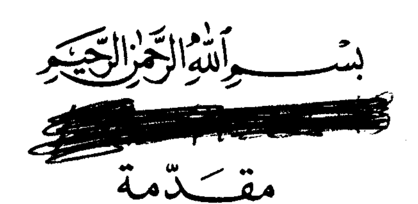
العلامة الطرطوشي

● (صنف الكتب الحسان في الأصول والفروع، التي انفرد بحسن وضعها وترتيبها، وتحقيق الكلام فيها).

الإمام ابن الجوزي

● (.. وبالجملة: ما رأى الرجل مثل نفسه).

العلامة ابن العماد الحنبلي



مقدّمة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم، على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد:

عَلَمنا الذي نترجم له، هو الإمام أبو حامد الغزالي، رحمه الله تعالى.

وحين يذكر «الغزالي» - في طول بلاد المسلمين وعرضها - يقفز إلى الذهن لقبان اقترنا بهذا الاسم، هما: حجة الإسلام، ومجدد القرن الخامس.

وتحت وهج هذين اللقبين، غابت ألقاب أخرى كثيرة، كان من الممكن أن تأخذ طريقها لتأخذ مكانها في دنيا الناس، بياناً لمكانة هذا الرجل الكبير.

فالغزالي شخصية متميزة، أخذت مكانها الواضح بين الأعلام الذين كانت لهم الصدارة في ميدان الفكر الإسلامي، وإذا قلنا:

إنها كذلك في ميدان الفكر العالمي، فإنا لا نعدو الحقيقة. ولهذا فهو: الإمام الفقيه، والإمام الأصولي، والإمام في علم الأخلاق، والإمام في علم التربية وعلم النفس، والإمام في علم الاقتصاد، والإمام السلفي، والإمام الصوفي، والإمام المصلح.. وهو مع كل هذا: الإمام العامل، والإمام العابد..

ويمكن للدارس أن يدرس الغزالي من خلال أي من الجوانب السابقة الذكر، ثم يخرج بترجمة كاملة لعلم من أعلام ذلك الميدان، ممن لهم الصدارة فيه.

إنها سمات قد يوجد بعضها في رجل، ولكنها قلما اجتمعت في إنسان واحد، ولذا لم يكن من السهل لأي باحث أن يوفي هذه الشخصية حقها.

ولهذا السبب كثرت الكتابات عن الغزالي، ترجمة وبحثاً.

ولم يكن من السهل إزاء ذلك السيل من المعلومات عن الإمام، وإزاء ذلك الإنتاج الكبير الذي طرحه بين الأيدي، أن يلم الكاتب عنه بجميع ما ينبغي أن يتناوله في حديثه.

وإذا كانت قلة المعلومات المتوفرة عن علم من الأعلام تسبب المشقة للباحث عنه، فإنه هنا ـ وعند الغزالي ـ يجد الباحث نفسه أمام كثرة من المعلومات تسبب له المشقة. لأنه مهما عمل، سيبدو مقصراً.

وتلك ميزة أخرى في شخصية هذا الإمام.

وفي سبيل إعطاء صورة قريبة المتناول للقارىء الكريم، وجدت ـ بعد البحث ـ أن أقرب الطرق إلى ذلك، هو عرض

الموضوع من خلال خمسة أبواب، في كل منها فصول. وهي كما يلي:

الباب الأول: شخصية الغزالي.

الباب الثاني: حين جاء الغزالي.

الباب الثالث: الغزالي والتصوف.

الباب الرابع: كتاب الإحياء.

الباب الخامس: الإمام المصلح.

هذا وأرجو الله تعالى أن يكون حديثنا عن الإمام الغزالي باعثاً على العمل للإسلام، وليس مجرد ثقافة يضيفها القارىء إلى معلوماته. كما أرجو أن يجعل هذا العمل خالصاً له سبحانه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

١٨ رمضان المبارك ١٤١٢

١٩٩٢/٣/٢١

صالح أحمد الشامي

تَوطِئَة ضَرُورِيَّة

يعد الإمام الغزالي من الصوفية، بل هو من مشايخهم، ولهذا السبب اختلفت مواقف بعض الناس منه بحسب موقفهم من الصوفية..

والإمام الغزالي في العقيدة على مذهب الأشاعرة، وإن خالفهم في بعض ما ذهبوا إليه، وقد اختلفت نظرة بعضهم إليه بحسب موقفهم من الأشاعرة..

وبناءً على هذين الأمرين، ذهب بعضهم إلى النقمة عليه، بل إلى التشكيك في عقيدته أيضاً، الأمر الذي يخالف تعاليم الإسلام، كما يخالف منهجه في الحكم على الأشخاص.

وإلى هؤلاء نسوق كلام الإمام ابن تيمية في هذين الأمرين:

ـ قال الإمام ابن تيمية في أمر تكفير المسلم:

«فمن أخطأ في بعض مسائل الاعتقاد من أهل الإيمان بالله ورسوله وباليوم الآخر، والعمل الصالح.. فيغفر الله خطأه، أو يعذبه إن كان منه تفريط في اتباع الحق على قدر دينه، وأما تكفير شخص عُلِم إيمانه بمجرد الغلط في ذلك فعظيم.

فقد ثبت في الصحيح عن ثابت بن الضحاك عن النبي ﷺ

قال: «لعن المؤمن كقتله، ومن رمى مؤمناً بالكفر فهو كقتله».

وثبت في الصحيح أن من قال لأخيه يا كافر، فقد باء به أحدهما. وإذا كان تكفير المعيَّن على سبيل الشتم كقتله، فكيف يكون تكفيره على سبيل الاعتقاد؟ فإن ذلك أعظم من قتله، إذ كل كافر يباح قتله، وليس كل من أبيح قتله يكون كافراً، فقد يقتل الداعي إلى بدعة لإضلاله الناس وإفساده، مع إمكان أن الله يغفر له في الآخرة لما معه من الإيمان، فإنه قد تواترت النصوص بأنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان..»[1].

- وكما شكك بعضهم في عقيدة الإمام الغزالي.. فإن بعضهم يريد إخراج المنتسبين إلى الصوفية من دائرة الإسلام.. ومنهم - بطبيعة الحال - الإمام الغزالي.. وإليهم نسوق كلام الإمام ابن تيمية في شأن الصوفية، قال في تعليقه على كلام أبي القاسم القشيري:

«والثابت الصحيح عن أكابر المشايخ [الصوفية] يوافق ما كان عليه السلف. وهذا هو الذي كان يجب أن يذكر.

فإن في الصحيح الصريح المحفوظ عن أكابر المشايخ مثل الفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، ويوسف بن أسباط، وحذيفة المرعشي، ومعروف الكرخي، إلى الجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأمثال هؤلاء ما يبين حقيقة مقالات المشايخ.

(١) الاستقامة، لابن تيمية ١/١٦٥ - ١٦٦ تحقيق محمد رشاد سالم. مطبوعات جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية.

وقد جمع كلام المشايخ إما بلفظه أو بما فهمه هو - أي القشيري - غير واحد، فصنف أبو بكر محمد بن إسحاق الكلاباذي كتاب (التعرف لمذاهب التصوف) وهو أجود مما ذكره أبو القاسم وأصوب، وأقرب إلى مذهب سلف الأمة وأئمتها وأكابر مشايخها، وكذلك معمر بن زياد الأصفهاني شيخ الصوفية، وأبو عبد الرحمن السلمي جامع كلام الصوفية، هما في ذلك أعلى درجة وأبعد عن البدعة والهوى من أبي القاسم.

وكذلك عامة المشايخ الذين سماهم أبو القاسم في «رسالته» لا يعرف عن شيخ منهم أنه كان ينصر طريقة الكلابية..»[1].

وبعد أن أثنى ابن تيمية على عقيدة هؤلاء المشايخ من الصوفية، عتب على أبي القاسم القشيري أنه لم يذكر في رسالته الأولياء الكاملين الذين كانوا في القرون الثلاثة الأولى فقال:

«وما ذكره أبو القاسم في رسالته من اعتقادهم وأخلاقهم وطريقتهم، فيه من الخير والحق والدين أشياء كثيرة، ولكن فيه نقص عن طريقة أكثر أولياء الله الكاملين، وهم نقاوة القرون الثلاثة ومن سلك سبيلهم، ولم يذكر في كتابه أئمة المشايخ من القرون الثلاثة..»[2].

وهكذا نرى أن ابن تيمية لم ينكر طريقة الصوفية في أصلها بل أثنى على مشايخها الذين استقاموا على الطريق. ولم يعدهم خارجين على طريق السلف.

(١) الاستقامة ١/٨٢ - ٨٤.
(٢) الاستقامة ١/٨٩.

وقد نقل كلام القشيري التالي: «اعلموا أن شيوخ هذه الطائفة بنوا قواعد أمرهم على أصول صحيحة في التوحيد، صانوا بها عقائدهم عن البدع، ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد، ليس فيه تمثيل ولا تعطيل».

ثم قال ابن تيمية: «قلت: هذا كلام صحيح، فإن كلام أئمة المشايخ الذين لهم في الأمة لسان صدق، كانوا على ما كان عليه السلف وأهل السنة، من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل، وهذه الجملة يتفق على إطلاقها عامة الطوائف المنتسبين إلى السنة. وإن تنازعوا في مواضع . .»[1].

وقال في صدد كلام نقله القشيري عن الجنيد:

«وهذا من أصول أهل السنة، وأئمة المشايخ، خصوصاً مشايخ الصوفية، فإن أصل طريقتهم الإرادة التي هي أساس العمل، فهم في الإرادات والعبادات والأعمال والأخلاق أعظم رسوخاً منهم في المقالات والعلوم، وهم بذلك أعظم اهتماماً، وأكثر عناية، بل من لم يدخل في ذلك لم يكن من أهل الطريق بحال، وهذا حق، فإن الدين والإيمان قول وعمل . .»[2].

وهكذا يثني الإمام ابن تيمية على الصوفية بأن اهتمامهم بالعمل أكثر من اهتمامهم بالقول.

ـ ونسوق كلام ابن تيمية في أمر ثالث، في هذه التوطئة، فهو مما يفيدنا ونحن نقدم لترجمة الإمام الغزالي. قال ـ رحمه الله ـ

(١) الاستقامة ١/٩٠ ـ ٩١.
(٢) الاستقامة ١/١٤٤ ـ ١٤٥.

مبيناً منهجه في نقده لأبي القاسم القشيري، بعد أن استشهد بقوله تعالى:

﴿كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا﴾[1].

قال: «. . واجتهدت في اتباع سبيل الأمة الوسط، الذين هم شهداء على الناس، دون سبيل من قد يرفعه فوق قدره في اعتقاده وتصوفه، على الطريقة التي هي أكمل وأصح مما ذكره علماً وحالاً، وقولاً وعملاً واعتقاداً واقتصاداً، أو يحطه دون قدره فيهما ممن يسرف في ذم أهل الكلام، أو يذم طريقة التصوف مطلقاً، والله أعلم»[2].

كان لا بد من هذه التوطئة، نضعها بين يدي حديثنا عن الإمام الغزالي. وهي من كلام إمام من أئمة أهل السنة والجماعة ليستفيد منها أولئك الذين يبتغون الحق والعدل، أما الذين سيطر عليهم التعصب والهوى فلا فائدة ترجى . .

ونختم القول: بأن العصمة ليست إلا للأنبياء، وأن غيرهم من الناس يخطىء ويصيب ومن عدّت أخطاؤه فذاك الرجل. وفي هذا المعنى قال الإمام الغزالي:

«فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم، لا ينظر الناس كلهم إليه

(١) سورة النساء، الآية ١٣٥.
(٢) الاستقامة ١/٩٠.

بعين واحدة، بل بعين الرضا بعضهم، وبعين السخط بعضهم، ولذلك قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
ولكن عين السخط تبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء، وعن تهمة الأشرار، فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر، فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث الباطن، وأن خبثه يترشح منه، وإنما رأى غيره من حيث هو، فإن المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العيوب، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٦.

البَابُ الأوّل

شَخْصِيَّةُ الغَزَالِيّ

الفَصلُ الأوّل
نُبذَةٌ عَن حيَاتِه

حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد بن محمد الطوسي، الملقب بزين الدين، ولد بطوس من إقليم خراسان عام ٤٥٠ هـ.

كان والده يغزل الصوف ويبيعه في دكانه بطوس، فلما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق متصوف من أهل الخير، وقال له: إن لي لتأسفاً عظيماً على تعلم الخط، وأشتهي استدراك ما فاتني في ولديّ هذين، فعلمهما ولا عليك أن تنفد في ذلك جميع ما أخلفه لهما.

فلما مات أقبل الصوفي على تعليمهما إلى أن فني ذلك النَّزر اليسير الذي خلفه لهما أبوهما، وتعذر على الصوفي القيام بقوتهما، فقال لهما: اعلما أني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من الفقر والتجريد بحيث لا مال لي فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجأا إلى مدرسة فإنكما من طلبة العلم، فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما.

ففعلا ذلك، وكان هو السبب في سعادتهما وعلو درجتهما.

وكان الغزالي يحكي هذا ويقول: طلبنا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلا لله.

- ١ -

قرأ الغزالي في صباه طرفاً من الفقه ببلدة «طوس» على الإمام أحمد الراذكاني، ثم سافر إلى «جرجان» ليأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي، فسمع منه، وكتب عنه، وعلق عنه التعليقة، ثم رجع إلى طوس.

قال الإمام أسعد الميهني: فسمعته يقول: قطعت علينا الطريق، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا، فتبعتهم، فالتفت إلي مقدمهم وقال: ارجع ويحك، وإلا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردَّ علي تعليقتي فقط، فما هي بشيء تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة، هاجرت لسماعها وكتابتها، ومعرفة علمها، فضحك وقال: كيف تدعي أنك عرفت علمها، وقد أخذناها منك، فتجردت من معرفتها، وبقيت بلا علم، ثم أمر بعض أصحابه فسلَّم إلي المخلاة.

قال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما وافيت «طوس» أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته، وصرت بحيث لو قطع الطريق عليَّ لم أتجرد من علمي.

- ٢ -

ثم إن الغزالي قدم «نيسابور» ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني (٤١٩ ـ ٤٧٨ هـ) وجدَّ واجتهد، حتى برع في المذهب (الشافعي) والخلاف، والجدل، والأصلين (أصول الدين وأصول

الفقه)، والمنطق، وقرأ الحكمة والفلسفة، وأحكم كل ذلك، وفهم كلام أرباب هذه العلوم، وتصدى للرد عليهم وإبطال دعاويهم.

وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً، أحسن تأليفها، وأجاد وضعها.

وكان شديد الذكاء، سديد النظر، عجيب الفطرة، مفرط الإدراك، قوي الحافظة، بعيد الغور، غواصاً على المعاني الدقيقة.. حتى وصفه أستاذه الجويني بقوله: الغزالي بحر مغدق.

قال الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل واصفاً الغزالي في هذه المرحلة من حياته: وجدَّ واجتهد حتى تخرج في مدة قريبة، وبزَّ الأقران، وحمل القرآن، وصار أنظر أهل زمانه، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين. وكان الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم ويرشدهم، ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف..

- ٣ -

وقد بقي الغزالي في نيسابور حتى توفي إمام الحرمين عام ٤٧٨ هـ فخرج إلى المخيم السلطاني قاصداً الوزير «نظام الملك»[1] الذي كان مجلسه محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة

(١) نظام الملك: هو الحسن بن علي الطوسي، الملقب بقوام الدين (٤٠٨ - ٤٨٥) وزير عالي الهمة، سمع الحديث. واتصل بـ «إلب أرسلان» فاستوزره، فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشر سنين، ولما مات خلفه ابنه «ملك شاه» فصار الأمر كله لنظام الملك، وكان من حسنات الدهر.

والفصحاء، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة والعلماء، فناظر الفحول، وقهر الخصوم، وظهر كلامه على الجميع، واعترفوا بفضله. وظهر اسمه في الآفاق، واشتهر في الأقطار.

وظل في المخيم السلطاني حتى عام ٤٨٤ حيث ولي التدريس في المدرسة النظامية ببغداد. فسار إلى العراق ليقوم بهذه المهمة.

- ٤ -

قدم الغزالي بغداد وقد بلغ الرابعة والثلاثين من العمر، وكانت شهرته قد سبقته إليها، فاستقبل بها استقبالاً حافلاً، ودرس بالنظامية، وأعجب الخلق بحسن كلامه وكمال فضله، وفصاحة لسانه، ونكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة.

وقد بلغ أوج مجده العلمي في هذه المدرسة، حيث كان يحضر درسه أربعمائة عمامة من أكابر العلماء. وعلت حشمته ودرجته في بغداد، حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ودار الخلافة، وصار إمام العراق بعد إمامة خراسان، كما يقول معاصره الثقة عبد الغافر[1].

وفي هذه المرحلة جدَّد المذهب في الفقه، فصنف فيه

(١) عبد الغافر بن إسماعيل، خطيب نيسابور وإمامها، كان إماماً حافظاً محدثاً.. ثقة، ولد سنة ٤٥١، وتوفي سنة ٥٢٩. وقد ترجم للإمام الغزالي ـ وهو المعاصر له ـ ترجمة وافية تعد أصلاً في ترجمات الغزالي. وقد ذكرها ابن السبكي في طبقات الشافعية الكبرى عند ترجمة الإمام الغزالي.

تصانيف، وسبك الخلاف فجدَّد فيه أيضاً.. كما صنف في الأصول.

بلغ الغزالي في تلك الأيام قمة المجد، وأتته الدنيا خاضعة ذليلة.. أتته بالمال والشهرة وذيوع الاسم، كما أتته بالجاه ونفوذ الكلمة.. واستمتع بذلك كله.

ولكنه مع ذلك لم ينقطع عن طلب العلم، فطالع العلوم الدقيقة والكتب المصنفة فيها. مما كان له كبير الأثر في التحول الكبير الذي غير مجرى حياته فيما بعد. ولنترك للإمام الغزالي الحديث. فهو خير من يشرح لنا قصته في هذا التحول:

«ابتدأت بمطالعة كتبهم مثل (قوت القلوب) لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد..

فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك..

وكان قد ظهر عندي: أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفُّ النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله: قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة، ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت، فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي الأحوال.

فلم أزل أفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحلّ العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى، لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جنود الشهوة جملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان ينادي: الرحيلَ الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل، فإن لم تستعد الآن للآخرة، فمتى تستعد؟ وإن لم تقطع هذه العلائق فمتى تقطع؟ فعند ذلك تنبعث الداعية، وينجزم العزم على الهرب والفرار.

ثم يعود الشيطان ويقول: هذه حال عارضة، إياك أن تطاوعها، فإنها سريعة الزوال، فإن أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص، والأمن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم، ربما التفتت إليك نفسك. ولا يتيسر لك المعاودة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة،

وفي هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ قفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً للقلوب المختلفة إليَّ فكان لساني لا ينطق بكلمة واحدة، ولا أستطيعها البتة..

ثم لما أحسست بعجزي، وسقط بالكلية اختياري، التجأت إلى الله تعالى، التجاء المضطر، الذي لا حيلة له، فأجابني الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه، والمال والأولاد والأصحاب.

وأظهرت عزم الخروج إلى مكة..»[١].

ـ ٥ ـ

وهكذا غادر الغزالي بغداد في شهر ذي القعدة سنة ثمان وثمانين، فحج وتوجه إلى الشام. فأقام بها عشر سنين. قضى بعضها في بيت المقدس.

وكان غالب وقته فيها عزلة وخلوة، ورياضة ومجاهدة للنفس، واشتغالاً بتزكيتها، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، وكان يعتكف في منارة مسجد دمشق طول النهار.

ويصف معاصره عبد الغافر انقلابه هذا فيقول: «وسلك طريق الزهد والتأله، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة للاشتغال بأسباب التقوى، وزاد الآخرة، فخرج عما كان فيه.. وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق، وتحسين الشمائل.. فانقلب

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٣٩ ـ ١٤٣ بتقديم الدكتور عبد الحليم محمود.

شيطان الرعونة، وطلبُ الرياسة والجاه، والتخلق بالأخلاق الذميمة، إلى سكون النفس، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والترتيبات، وتزيا بزي الصالحين، وقصر الأمل.. والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية..».

قال: «وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها مثل (إحياء علوم الدين) والكتب المختصرة منه، مثل الأربعين وغيرها من الرسائل، التي من تأملها علم محل الرجل من فنون العلم»[1].

- ٦ -

ثم عاد الغزالي بعد تلك العزلة التي استمرت عشر سنوات إلى بلده طوس، ليتابع عزلته سنة أخرى.

وتحت إلحاح الولاة وتكرار طلبهم بالخروج إلى الناس.. خرج إلى نيسابور ليدرس بالمدرسة النظامية فيها وكان ذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤٩٩ هـ وقال في ذلك:

«ويسر الله الحركة إلى نيسابور للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبلغت مدة العزلة إحدى عشرة سنة»[2].

ويشرح لنا الغزالي عودته إلى التعليم، وأنها كانت بأسلوب

(١) المنقذ من الضلال ص ٨١ ـ ٨٢.
(٢) المرجع السابق ص ١٥٩.

جديد، ونية جديدة، وهدف جديد يختلف كل الاختلاف عما كان عليه سابقاً فيقول:

«وأنا أعلم أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان. وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني.

وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصل إلى مرادي، أم أُخْتَرَمُ دون غرضي؟ ولكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة: أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك لكنه حركني، وأني لم أعمل لكنه استعملني، فأسأله: أن يصلحني أولاً، ثم يصلح بي، ويهديني، ثم يهدي بي، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه»[1].

- ٧ -

لم تطل إقامته في نيسابور، وكانت المدة التي درسها في النظامية فيها يسيرة، ثم ترك ذلك قبل أن يُترك، وعاد إلى بيته في طوس، واتخذ في جواره مدرسة لطلبة العلم، وخانقاه للصوفية، ووزع وقته على وظائف: من ختم للقرآن، ومجالسة لأهل القلوب، وتدريس لطلبة العلم، وإدامة صلاة وصيام..

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥٩ ـ ١٦٠.

وكان ذلك بحيث لا تخلو لحظاته ولحظات من معه عن فائدة.

وكانت خاتمة أمره، إقباله على حديث المصطفى ﷺ ومجالسة أهله، ومطالعة الصحيحين: البخاري ومسلم. اللذين هما حجة الإسلام، ولو عاش لسبق الكل في ذلك الفن بيسير من الأيام، كما قال عبد الغافر..

توفي بطوس يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة، سنة خمس وخمسمائة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة بمنّه وكرمه[1].

---

(١) مراجع الترجمة:
- طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي ١٠١/٤. وما بعدها.
- إتحاف السادة المتقين شرح إحياء علوم الدين، للزبيدي ٦/١ وما بعدها.
- المنقذ من الضلال للإمام الغزالي بتقديم عبد الحليم محمود.
- وفيات الأعيان، لابن خلكان ٢١٦/٤ وما بعدها.

الفَصل الثاني

ثقافة «الغزالي»

ثقافة واسعة:

يعدُّ الإمام الغزالي واحداً من أعلام الفكر الإسلامي، الذين تنوعت معارفهم واتسعت ثقافتهم فشملت علوم العصر وفنونه على اختلافها وتنوعها، وواحداً من أفراد قلائل في كثرة الإنتاج والعطاء.

قال شيخه إمام الحرمين: الغزالي بحر مغدق.

وقال تلميذه محمد بن يحيى: لا يعرف فضل الغزالي إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله.

وقال معاصره عبد الغافر الفارسي: الغزالي حجة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً، ونطقاً وخاطراً وذكاءً وطبعاً.

هذه آراء الذين عرفوه عن قرب ومخالطة.

وقال ابن النجار: إمام الفقهاء على الإطلاق، ورباني الأمة بالاتفاق، مجتهد زمانه، وعين وقته وأوانه.. قام بنصر السنة وإظهار الدين.

وقال الحافظ ابن عساكر: كان إماماً في علم الفقه مذهباً وخلافاً، وفي أصول الديانات. .

وقال تقي الدين السبكي: حجة الإسلام. . جامع أشتات العلوم، والمبرز في المنقول منها والمفهوم[1].

والأقوال فيه كثيرة، يجملها ابن العماد الحنبلي بقوله «. . وبالجملة ما رأى الرجل مثل نفسه»[2].

وتشير هذه الأقوال بجملتها إلى سعة ثقافة الغزالي وعمقها ولعل كلمة شيخ الأزهر المرحوم مصطفى المراغي توضح لنا ذلك بشيء من التفصيل: قال:

«إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتازوا به من فروع العلم، وشعب المعرفة، فإذا ذكر ابن سينا أو الفارابي، خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام، وإذا ذكر البخاري، ومسلم، وأحمد، خطر بالبال رجال لهم أقدارهم في الحفظ والصدق، والأمانة، والدقة ومعرفة الرجال. .

أما إذا ذكر الغزالي، فقد تشعبت النواحي، ولم يخطر بالبال رجل واحد، بل خطر بالبال رجال متعددون، لكل واحد قدره، وقيمته. . يخطر بالبال الغزالي الأصولي الحاذق الماهر، والغزالي الفقيه الحر، والغزالي المتكلم، إمام السنة وحامي حماها، والغزالي الاجتماعي، الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في طبقات الشافعية الكبرى، لابن السبكي ١٠١/٤ وما بعدها.

(٢) شذرات الذهب ١٠/٤ وقال مثل ذلك معاصره عبد الغافر الفارسي انظر طبقات الشافعية ١٠٧/٤.

ومكنونات القلوب[1]، والغزالي الفيلسوف، أو الذي ناهض الفلسفة، وكشف عما فيها، أنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره، رجل متعطش إلى معرفة كل شيء، نهم إلى فروع المعرفة»[2].

إن وراء هذه المكانة العلمية نفساً تواقة إلى العلم متعطشة إلى المعرفة، حريصة على الوصول إلى الحق عن طريق البحث بعيداً عن التقليد، وقد بين لنا الغزالي ذلك بقوله:

«ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنياً إلا وأحب أن أطلع على بطانته.

ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته.

ولا فلسفياً إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته.

ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

ولا صوفياً إلا وأحرص على العثور على سرِّ صفوته.

(١) لا يراد هنا معنى العلم بالغيب، بل يراد الخبرة في دراسة النفوس.

(٢) عن كتاب «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» للدكتور يوسف القرضاوي ص ١٨.

ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه، للتنبه لأسباب جرأته، في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور - دأبي، وديدني، من أول أمري وريعان عمري - غريزة، وفطرة من الله، وضعتا في جبلتي، لا باختياري وحيلتي، حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة، على قرب من سن الصبا..»[1].

وهكذا كان منفتحاً على جميع ثقافات عصره، راغباً في تعرف ما وراءها من بواعث أو غايات، غير قابل بالوقوف عند التعرف عليها معرفة باردة.

لهذا كانت ثقافته ميداناً رحباً للباحثين، يجد كل منهم فيه بغيته، فقد كتب الغزالي في العديد من فنون العلم:

فإن كنت باحثاً في: الفقه، أو الأصول، أو علم الكلام، أو الفلسفة والمنطق، أو في التصوف والأخلاق، أو في المذاهب والفرق، أو علم النفس، أو علم الاجتماع.. فإنك واجد فيما كتبه الغزالي ما يلبي حاجتك.

إنك - في الواقع - أمام علماء في شخصية الإمام الغزالي. وهذا ما دفع تلميذه محمد بن يحيى إلى القول: «الغزالي لا يعرف فضله إلا من بلغ - أو كاد يبلغ - الكمال في عقله».

---

(1) المنقذ من الضلال ص ٨٨ - ٨٩. بتحقيق عبد الحليم محمود.

وقد علق السبكي على هذه الكلمة بقوله: «يعجبني هذا الكلام، فإن الذي يحب أن يطلع على منزلة من هو أعلى منه في العلم يحتاج إلى: العقل والفهم، فبالعقل يميز، وبالفهم يقضي، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوىٰ، احتاج من يريد الاطلاع على مقداره أن يكون هو تام العقل، وأقول: لا بد مع تمام العقل من مداناة مرتبته في العلم لمرتبة الآخر، وحينئذٍ فلا يعرف أحد ممن جاء بعد الغزالي قدر الغزالي، ولا مقدار علم الغزالي، إذ لم يجىء بعده مثله..»[1].

وهذا القول، وإن كان فيه بعض المبالغة، فإن فيه الكثير من الحقيقة، ويدل على مكانة الإمام الغزالي العلمية.

باحث ناقد:

لم يكن الغزالي مثل غيره من العلماء الذين دأبهم حفظ ما يتلقون، وإعادته وتكراره ونقله، بل كان عالماً فاعلاً، تخضع الفكرة المتلقاة لديه إلى الفحص والاختبار. ومن ثم قد ترفض أو تعدَّل .. أو توضح وتشرح.. إنها عملية التجديد..

قال عبد الغافر الفارسي: ثم نظر الغزالي في علم الأصول - وكان قد أحكمه - فصنف فيه تصانيف، وجدَّد المذهب في الفقه، فصنف فيه تصانيف، وسبك الخلاف فجدد فيه أيضاً تصانيف[2].

ولم يكن أثره في علم الكلام أقل من أثره في الفقه، فقد كان

---

(1) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١٠٦/٤.
(2) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١٠٧/٤.

له أثره الواضح فيه. يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في صدد حديثه عن الغزالي وعلم الكلام:

«لم يكن لمثل الغزالي - مع مواهبه العظيمة وعقله المبتكر. وعلمه الذي لم يزل في نمو مستمر- أن يكون ناقلاً لكلام المتكلمين المتقدمين، أو يكون شارحاً له فحسب، ولا تظهر شخصيته العلمية في ما يكتب ويؤلف ويفكر..»(١).

وليس بخافٍ على أحد كيف قلب الموازين بالنسبة للفلسفة..

وهكذا كان الغزالي العالم الفاعل الناقد المبتكر..

مشايخ الإمام الغزالي

أول مشايخه في الفقه الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الراذكاني الطوسي، وقد قرأ عليه بطوس. ثم أبو النصر الإسماعيلي، وقد قرأ عليه بجرجان. ثم إمام الحرمين وقد قرأ عليه بنيسابور.

وفي التصوف: الإمام الزاهد أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمدي الطوسي. وهو من أعيان تلامذة أبي القاسم القشيري، صاحب «الرسالة». توفي الفارمدي بطوس سنة ٤٧٧ هـ.

وتتلمذ في آخر حياته في الحديث على بعض المشايخ منهم: أبو سهل المروزي، ومحمد بن يحيى الزوزني(٢).

وأما في الفلسفة فلم يكن له أستاذ فيها وقد بين ذلك بقوله:

---

(١) رجال الفكر والدعوة لأبي الحسن الندوي ص ٢١٧ ط دار القلم بالكويت.

(٢) إتحاف السادة المتقين بشرح الإحياء للزبيدي ١/١٩.

فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس.. فأطلعني الله سبحانه وتعالى - بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة - على منتهى علومهم في أقل من سنتين..»(١).

وأعتقد أن الكثير من ثقافته كان بهذه الطريقة التي تعرَّف بها على الفلسفة.

مصنفات الإمام الغزالي:

يعدّ الإمام الغزالي واحداً من الأئمة المكثرين من التأليف، كابن جرير الطبري، وابن النقيب، والنووي، والسبكي والسيوطي وغيرهم.

وللغزالي تصانيف في غالب الفنون. وقد ذكر الزركلي في كتابه الأعلام: أن له نحواً من مائتي مصنف، ومنها «ياقوت التأويل في تفسير التنزيل» قيل: في نحو أربعين مجلداً.

وقد عدَّ الإمام السبكي له في كتابه «طبقات الشافعية» أكثر من خمسين كتاباً. وعدَّ له الزبيدي في شرحه للإحياء أكثر من سبعين كتاباً. وعدَّ الزركلي من كتبه المطبوعة ثلاثة وعشرين كتاباً.

وقد نَبه الزبيدي إلى أنه قد عزي إلى الغزالي كتب، وقد صرح أهل التحقيق أنها ليست له، منها:

---

(١) المنقذ من الضلال، بتقديم عبد الحليم محمود ص ١٠٣.

- السر المكتوم في أسرار النجوم.

- تحسين الظنون.

- النفخ والتسوية.

- المضنون به على غير أهله.

فهي كتب موضوعة عليه. قال ابن السبكي عن الكتاب الأخير: ذكر ابن الصلاح أنه منسوب إليه وقال: معاذ الله أن يكون له، وبين سبب كونه مختلقاً موضوعاً عليه، والأمر كما قال، وقد اشتمل على التصريح بقدم العالم، ونفي علم القديم بالجزئيات، وكل واحد من هذه يكفر الغزالي قائلها، هو وأهل السنة أجمعون، فكيف يتصور أن يقولها[1].

ولا نريد الإطالة بسرد أسماء هذه الكتب، بعد أن بينا أماكن ذكرها، ولكنا نذكر بعضها على سبيل المثال، فمنها:

- إحياء علوم الدين وهو أهم كتب الإمام الغزالي.

- المنقذ من الضلال: وقد قال عنه الدكتور القرضاوي: سجل الغزالي قصة حياته الفكرية والنفسية بقلمه البليغ، تسجيلاً مؤثراً بما فيه من وضوح وصدق في كتابه الفريد: «المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال» الذي يعد ـ على وجازته ـ من أهم ما خطه قلم الغزالي، وما أنتجه فكره المعطاء، والذي يقول عنه أستاذنا المدعو له بالرحمة الدكتور محمد يوسف موسى: هذا الكتاب لا نعرف أي مفكر أو فيلسوف كتب مثله أو ما يدانيه، فهو

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح الإحياء ١/٤٣.

اعترافات بخلجات نفسه، وحركات قلبه وعقله، حتى وصل مما أراد إلى خاتمة المطاف[1].

- تهافت الفلاسفة.

قال الدكتور عبد الحليم محمود في حق هذه الكتب الثلاثة، التي سبق ذكرها:

«إذا تصفحنا مؤلفات الإمام «الغزالي» ـ سواء منها ما ألف قبل فترة تصوفه، وما ألف أثناءها ـ فإننا نجد أن أهمها في نظر الباحث الذي يريد أن يحدد شخصيته، ومنهجه واتجاهه، ثلاثة.

وهي ـ فضلاً عن ذلك ـ تعتبر في نظرنا أهم كتبه على الإطلاق.

ولو لم يؤلف الإمام «الغزالي» غيرها، لبقي هو «الغزالي» العملاق، الصوفي، الفيلسوف بطابعه وسماته وشخصيته، لا ينقص شيئاً.. ولكنه لو لم يؤلفها، لما كان هو الإمام «الغزالي» صاحب الأثر الخالد على الدهر»[2].

- البسيط، الوسيط، الوجيز، الخلاصة: وهي أربعة كتب في الفقه الشافعي مرتبة ترتيباً تنازلياً من حيث السعة.

- المنخول، المستصفى: وهم كتابان في الأصول.

- مقاصد الفلاسفة: في الفلسفة[3].

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه، للدكتور القرضاوي ص ١٠٦.

(٢) المنقذ من الضلال بتقديم عبد الحليم محمود ص ٤٠.

(٣) وقد ذكر أسماء المعروف من كتبه «العيدروس» في كتابه «تعريف الأحياء بفضائل الإحياء» كما ذكرها شارح الإحياء الزبيدي ١/٤١ ـ ٤٤.

الفَصل الثالث

شَخصِيَّةٌ فَذَّةٌ

إن المطالع لأخبار الإمام الغزالي، يشعر أنه أمام شخصية متميزة، قد امتلكت من الخصائص والصفات ما جعل لها هذا الامتداد وذاك الأثر على مَرِّ القرون.

ونحاول في هذا الفصل الإشارة إلى بعض الجوانب التي نستطيع من خلالها النفاذ إلى تصور أدق عن هذه الشخصية الفذة.

دأب وجلد

لم يعرف الغزالي شيئاً يسمى «الفراغ» في حياته، فقد كانت ساعاته جميعها مليئة بالعمل الجاد، يستفيد من كل دقيقة تمرُّ به.

وهذا التقدير لقيمة الوقت، مع جلد لا يعرف التعب، ودأب لا يعرف الملل، هو الذي أهَّلَه لشغل أكبر منصب علمي في العالم الإسلامي ولما يتجاوز الرابعة والثلاثين من العمر.

ولعل في دراسته للفلسفة المثال الذي يبين لنا نموذجاً من دأبه وجلده، فهو يخبرنا في كتابه «المنقذ من الضلال» أنه بدأ بدراسة الفلسفة من غير استعانة بأستاذ، وهو في ذروة مشاغله. حيث كان

يدرس في النظامية ببغداد لثلاثمائة من الطلبة، وأن هذه الدراسة كانت في أوقات فراغه من التصنيف في تلك الأيام، وأنها كانت مجرد مطالعة في الأوقات المختلسة من بين ساعات التدريس والتحضير والتصنيف. ومع ذلك فقد توصل إلى منتهى علومهم في أقل من سنتين. الأمر الذي مهد له السبيل لإخراج كتابيه فيما بعد عنها وهما: «مقاصد الفلاسفة» و «تهافت الفلاسفة».

إرادة قوية

وقد وهبه الله إرادة قوية، استطاع بها أن يسيطر على نفسه، ويغير مجرى حياته تغييراً كلياً.

كان ذلك في الوقت الذي بلغ الغزالي فيه ذروة مجده العلمي، حيث خضع له العلماء والوزراء والأمراء، وكان ما وصل إليه غاية ما يطمح إليه غيره أو يفكر فيه..

ولكنه عندما راجع حسابه بميزان الآخرة، وجد نفسه في حياة زائفة، ظاهرها الدين والعلم، وباطنها الدنيا والشهرة.

وعندها حصل هذا التحول.. فترك المنصب والجاه والمال والصيت والسمعة.. وزهد بها جميعاً في آنٍ واحد، وترك الأثاث والرياش.. وانتقل إلى جو آخر يمارس فيه عيش الفقراء والغرباء.. في سبيل تعلم الإخلاص وممارسته.

هذا التحول لم يكن ليحصل لولا تلك الإرادة القوية التي تمتع بها الغزالي، فحقق بها وجوده، وأعاد إلى ذاكرتنا سيرة السلف الصالح من أمثال عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى.

وينقل لنا الإمام ابن الجوزي بعض آثار هذا التحول فيقول:

«عن أبي منصور الرزاز الفقيه، قال: دخل أبو حامد بغداد، فقومنا ملبوسه ومركوبه خمسمائة دينار، فلما تزهد وسافر، وعاد إلى بغداد، فقومنا ملبوسه خمسة عشر قيراطاً.

وحدثني بعض الفقهاء عن «أنو شروان» وكان قد وزر للخليفة، أنه زار أبا حامد الغزالي، فقال له أبو حامد: زمانك محسوب عليك، وأنت كالمستأجر، فتوفرك على ذلك أولى من زيارتي.

فخرج أنو شروان وهو يقول: لا إله إلا الله، هذا الذي كان في أول أمره يستزيدني فضل لقب في ألقابه.. فآل أمره إلى هذا الحال..»[1].

اعتداد بالذات

وكان الغزالي في حياته كلها ـ قبل التصوف وبعده ـ معتداً بذاته، يعرف لنفسه مكانتها، وملاحظة ذلك في أخباره قبل تصوفه سهل ميسور.

ومن أمثلة ذلك، ما ذكره في كتابه «فضائح الباطنية» مشيراً إلى أنه أهل للتأليف في هذا الموضوع الخطير، منوهاً بتكليف الخليفة المستظهر له بتأليف هذا الكتاب.. فيقول:

«وإن رجعت إلى نفسي، وقد شرفت بالخطاب به من بين سائر العالمين.. رأيت المسارعة إلى الإذعان، والامتثال في حقي من فروض الأعيان، إذ يقل على بسيط الأرض من يستقل في قواعد

(١) المنتظم لابن الجوزي ٩/١٧٠.

العقائد بإقامة الحجة والبرهان.. فإنه الخطب الجسيم، والأمر العظيم، الذي لا تستقل بأعيانه بضاعة الفقهاء، ولا يضطلع بأركانه إلا من تخصص بالمعضلة الزباء[1]»[2].

وهكذا، فهو لا يرى غيره أهلاً للقيام بهذه المهمة..

وقريباً من هذا كان موقفه عند حديثه عن الفلسفة، وأنه لم يقم أحد من علماء المسلمين لنقضها بطريق صحيح، وذلك بدراستها أولاً.. فقال:

«ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك.. فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب..»[3].

وبهذا الأسلوب يعتز الغزالي بنفسه ويعتدّ بها.. ويستمر هذا الاعتداد بعد تصوفه، ولكنه يأخذ منحى آخر.

فقد كان يتطلع في آخر حياته أن يكون المجدد للمئة الخامسة، وقد روى أبو داود والحاكم والبيهقي قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها».

وقد جاء هذا التطلع خلال حديثه عن عودته إلى التدريس، بعد عزلته التي استمرت عشر سنوات.. حيث قال:

«فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب..[4] فاتفقوا

(١) الزباء: الداهية الشديدة.

(٢) «الغزالي» تأليف الدكتور أحمد الشرباصي ص ٣٣ ط دار الجيل - بيروت.

(٣) المنقذ من الضلال ص ١٠٣.

(٤) يقصد بهم: الصالحين.

على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية.

وانضاف إلى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد، قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة، وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مائة..»[1].

وهكذا ـ وبعد التصوف ـ يرى الإمام الغزالي في نفسه أهلاً لهذا المقام، الأمر الذي يؤكد أصالة هذه الصفة عنده، وإن تغيرت مظاهرها من التأكيد والجزم، إلى الأمل والرجاء.

نكتفي بذكر هذه النماذج ـ إضافة لما سبق ذكره في الفصلين السابقين ـ لإلقاء الضوء على شخصية الإمام الغزالي.. وسوف تكون الصورة أكثر وضوحاً عند استكمال الموضوع في الأبواب والفصول القادمة.

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥٩.

الفصل الرابع

أُسْرَةُ «ٱلغَزَالِيّ»

في بلدة طوس، وفي بيت متواضع ولد الغزالي، وكانت طوس يومئذٍ من المدن المشهورة في خراسان.

ومن غزل الصوف وبيعه كان والد الإمام الغزالي يؤمن الدخل الذي يفي بالحاجات الضرورية لهذه الأسرة الصغيرة.

وليس هناك معلومات وافية عن هذه الأسرة من حيث عدد أفرادها، وكل ما ذكر هو أنها تتألف من الأب وزوجته وولديه محمد وأحمد.

وهناك خلاف حول أصل هذه الأسرة، هل ترجع إلى أصل عربي أم إلى أصل فارسي، ومهما يكن من أمر فإن هذه القضية لا تقدم ولا تؤخر، فقد جاء الإسلام ليقول: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

كان والده شغوفاً بالعلم، محباً للعلماء، كثير التردد على مجالسهم، ولكنه لم يكن عالماً، وكان يرى في خدمة العلم والعلماء، عملاً يتقرب به إلى الله تعالى.

وكان أمله أن يكون له في ولديه ما فاته أن يحققه في نفسه. . فكان يدعو الله عز وجل أن يجعلهما في عداد العلماء. .

واستجاب الله دعاء الوالد، وأصبح ولداه ممن يشار إليهما بالبنان، ولكنه توفي قبل أن يشهد تحقق أمنيته، وهما صغيران كما سبق ذكر ذلك.

ورأينا في الفصل الأول كيف نشأ الولدان في رعاية ذلك الصوفي الصالح الذي عهد إليه والدهما بالإشراف على تربيتهما. ورأينا كيف نشأ الإمام أبوحامد. . وتابع طريقه في العلم. وسيرة أخيه «أحمد» الذي كانت كنيته «أبا الفتوح» لا تختلف عن سيرته كثيراً، فقد قطعا المراحل الأولى للتعليم معاً. . ولكن أبا الفتوح غلب عليه الفقه، ثم غلب عليه الوعظ.

قال الحافظ السلفي: حضرت مجلس وعظه بهمذان، وكان أذكى خلق الله وأقدرهم على الكلام.

وقد دون صاعد بن فارس اللباني مجالس وعظه ببغداد، فبلغت ثلاثاً وثمانين مجلساً كتبها بخطه في مجلدين.

وقد قام مقام أخيه أبي حامد في التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد حين سافر إلى دمشق.

ويعد أبو الفتوح أول من اختصر كتاب الإحياء، وسمى مختصره (لباب الإحياء) وله كتاب آخر سماه (الذخيرة في علم البصيرة) في التصوف.

وقد امتدت به الحياة فعاش بعد أخيه خمسة عشر عاماً إذ كانت وفاته سنة ٥٢٠ هـ.

ونعود إلى الإمام أبي حامد، فالذي يبدو أنه تزوج في وقت مبكر، ورزق الأولاد، ويذكر أنه ولد له ابن سماه «حامد» ولكنه مات وهو صغير، ولذا فقد كانت ذريته من البنات.

وقد كان عطوفاً عليهن. وقد ذكر في كتابه «المنقذ من الضلال» أن من أسباب عودته إلى الوطن بعد رحلته الطويلة دعوات أطفاله فقال: ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق من الرجوع إليه.

وقد تعرفنا في الفصل السابق على شخصية الإمام الغزالي، ولكنا لو أردنا التعرف على صفاته الجسمية لم نجد لدى الذين ترجموه أي اهتمام بهذا الجانب. . فقد شغلتهم الجوانب الأخرى.

وقد اختلف بشأن كلمة «الغزالي»، هل هي نسبة إلى قرية غزالة، أو هي نسبة إلى غزل الصوف الذي كان يعمل به والده؟ فعلى القول الأول فهي بغير تشديد، وعلى الثاني فهي مشددة.

وقد جاء في كتاب سير أعلام النبلاء: نقل الشيخ تقي الدين ابن الصلاح بسنده عن الغزالي أنه قال: الناس يقولون لي: الغزّالي، ولست الغزّالي، وإنما أنا الغزالي، منسوب إلى قرية غزالة.

وغزالة: قرية من قرى طوس، أو هي إحدى ضواحيها.

وفي نهاية هذا الفصل نترك الكلام لأبي الفتوح لينقل لنا المشهد الأخير من حياة أخيه أبي حامد، حيث قال:

لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي وصلى وقال: عليَّ بالكفن. فأخذه وقبله ووضعه على عينيه وقال: «سمعاً وطاعة للدخول على الملك» ثم مد رجليه واستقبل القبلة ففاضت روحه إلى رضوان الله تعالى قبل الإسفار.

رحمه الله تعالى.

الفَصل الخامِس
مِن كلِمَاتِه

من الكلام كلمات تتسم بالإضاءة والحرارة والفاعلية، يستشعر القارىء أو السامع أثرها في نفسه، وإضاءتها في عقله، وحرارتها في كيانه، فهي كلمات فاعلة.

وسر فاعلية هذا النوع من الكلام، كونه خارجاً من القلب ومسربلاً بالإخلاص ولهذا فهو يتجاوز السمع سريعاً ليصل إلى القلب مباشرة.

وكلام الغزالي في جملته يرجع إلى هذا النوع، والإحياء على سعته نموذج حي بين يدي القارىء يمكنه الرجوع إليه.

ونختار في هذا الفصل نماذج يسيرة من كلمات الإمام الغزالي، ليستطيع القارىء أخذ فكرة عملية عن هذا الجانب في شخصية الإمام رحمه الله.

● أشرف أنواع العلم، العلم بالله عز وجل، وصفاته وأفعاله، وفيه كمال الإنسان، وفي كماله سعادته وصلاحه.

● مدار الطاعات وأعمال الجوارح كلها تصفية القلب، وتزكية إشراق نور المعرفة.

● ليس الورع في الجبهة حتى تقطب، ولا في الخد حتى يصعَّر، ولا في الظهر حتى ينحني، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، إنما الورع في القلوب. أما من تلقاه ببشر، فيلقاك بعبوس، يمنّ عليك بعلمه، فلا أكثر الله في المسلمين من مثله.

● أعظم أنواع علوم المعاملة الوقوف على خدع النفس، ومكايد الشيطان، وذلك فرض عين على كل جسد، وقد أهمله الخلق، واستقلوا بعلوم تجر إليهم الوسواس وتسلط عليهم الشيطان.

● أشد الناس حماقة، أقواهم اعتقاداً في فضل نفسه، وأثبت الناس عقلاً، أشدهم اتهاماً لنفسه.

● مهما رأيت إنساناً سيء الظن بالله، طالباً للعيوب، فاعلم أنه خبيث في الباطن، والمؤمن سليم الصدر في حق كافة الخلق.

● النفس إذا لم تمنع بعض المباحات، طمعت في المحظورات.

● السعادة كلها في أن يملك الرجل نفسه، والشقاوة في أن تملكه نفسه.

● من لم يطلع على مكايد الشيطان وآفات النفوس، فأكثر عبادته تعب ضائع، تفوّت عليه الدنيا، ويخسر في الآخرة.

● ظن من يظن أن العلوم العقلية، مناقضة للعلوم الشرعية،

وأن الجمع بينهما غير ممكن، ظن صادر عن عمى في عين البصيرة، نعوذ بالله منه.

● العلم بلا عمل جنون، والعمل بغير علم لا يكون.

● ما لم تعمل لم تنل الأجر.

● الهموم بقدر الهمم.

● ليس حسن الخلق مع المرأة كف الأذى عنها، بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها.

● أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء، وكم من دواء ينتفع به مريض، ويستضر به آخر.

● مثل الإنسان في عمره، مثل رجل كان يبيع الثلج في وقت الصيف، ولم تكن له بضاعة سواه، فكان ينادي ويقول: ارحموا من رأس ماله يذوب.

● الإخلاص أن تكون أعمالك كلها لله تعالى، ولا يرتاح قلبك بمحامد الناس، ولا تبالي بمذمتهم.

● واعلم أن الرياء يتولد من تعظيم الخلق.

الباب الثاني

حين جاء الغزالي

نتحدث في هذا الباب، عن المرحلة التي سبقت تصوف الغزالي.

فنتحدث عن الجو العام الذي وجد فيه الغزالي ثم كيف ـ وهو يحدد مساره ـ استطاع أن يقوم بعملين جليلين، هما:

ـ تقويض كيان الفلسفة.

ـ وفضح الباطنية.

الفصل الأول
لمحة تاريخية

العقيدة وعلم الكلام

ظلت عقائد المعتزلة ونظرياتهم تشغل العقول وتسيطر على الأذهان ـ على الرغم من فقدان عقيدة «خلق القرآن» سلطانها، بعد مجيء الواثق الذي كان ناقماً على الاعتزال ـ وذلك بسبب وجود شخصيات قوية فيهم. ذات ذكاء وحدة نظر، استطاعت أن تستقطب حولها الشباب المثقف الذكي، وأصبح شبه المقرر عندهم أن المعتزلة يمتازون بدقة النظر، واتساع الفكر والتحقيق. وأن أراءهم نتائج علمية أقرب إلى العقل، وصار من يحبون الظهور من طلبة العلم، يظهرون الاعتزال. .

وبالعكس من ذلك، لم يظهر في الحنابلة والمحدثين بعد الإمام أحمد شخصية قوية جذابة، وأعرض المحدثون ومن كان على شاكلتهم من العلماء عن العلوم العقلية وأساليب البحث والاستدلال الجديدة التي شاعت بتأثير المعتزلة.

ونتج عن ذلك تفوق المعتزلة في مجالس البحث والمناظرة. . وأُخذ الناس بسحر المعتزلة وفلسفتهم، وصار هؤلاء المتفلسفون

يعبثون بتفسير القرآن وعقائد الإسلام، تتحكم فيها أهواؤهم وعقولهم ووجد اتجاه جديد يقدس العقل ويحكمه حتى في مسائل النبوة والإيمان بالغيب. .

وقد عجز عن مقاومة هذا التيار المحدثون والحنابلة والزهاد والفقهاء. .

في هذا الجو نشأ أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، حيث ولد بالبصرة عام ٢٧٠ هـ، وتزوجت أمه ـ بعد وفاة أبيه ـ بأبي علي الجبائي، شيخ المعتزلة في عصره.

وكان أبو علي الجبائي صاحب تصنيف وقلم، فنشأ أبو الحسن في حجره، وتلقى علومه وصار نائبه، وموضع ثقته، ولم يزل كذلك حتى تصدر المعتزلة، وأصبح يشار إليه بالبنان وظل على ذلك أربعين سنة. . يدافع عن مذهب الاعتزال.

ولكن أبا الحسن استطاع خلال ذلك أن يكشف عورات المعتزلة، وظهرت له انحرافاتهم. الأمر الذي أقلقه. . فاعتكف في بيته خمسة عشر يوماً، ثم خرج بعدها إلى المسجد الجامع بالبصرة فارتقى كرسياً، ونادى بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني فأنا فلان. . كنت أقول بخلق القرآن. . وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعائبهم.

وهكذا تحول إلى مذهب أهل السنة، وأصبح المدافع عن عقيدتهم في حماسة وإيمان، مزود بالسلاح الذي يحمله المعتزلة. .

وكان سر عظمة الأشعري أنه اتخذ طريقاً وسطاً، فلم يذهب إلى تمجيد العقل كما فعل المعتزلة ولم ير أن الدفاع عن الدين يستلزم إنكار العقل كما فعل غيرهم.

وقد أقام البراهين العقلية والكلامية على عقيدة أهل السنة، وناقش المعتزلة والمتفلسفة في عقائدهم عقيدة عقيدة، وذلك كله في لغة يفهمونها.

وقد نشأ في مدرسة أبي الحسن الأشعري الفكرية علماء فحول ومتكلمون كبار، خضع لعلمهم ونفوذهم العالم الإسلامي لفترة من الزمن، وبفضلهم انتقلت قيادة العالم الإسلامي الفكرية من المعتزلة إلى أهل السنة. منهم: القاضي أبو بكر الباقلاني (٤٠٣ هـ) والشيخ أبو إسحاق الإسفرائيني (م ٤١٨ هـ) وإمام الحرمين الجويني (٤٧٨ هـ).

وقد انتشر المذهب الأشعري أيام وزارة نظام الملك، الذي كان أشعري العقيدة وزاد في انتشاره المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور.

ولكن مدرسة الأشعري فقدت بعد ذلك نشاطها الفكري وحيويتها، فقد طغى التقليد على تلاميذ هذه المدرسة، ووقفوا على ما أنتجه أستاذهم، وعضوا عليه بالنواجذ. وأصبح علم الكلام علماً متناقلاً.

وشعر بعضهم بأن الزمان قد تطور، فأدخل مصطلحات الفلسفة وأسلوبها في الاستدلال في علم الكلام. ولم يحسن صنعاً، لأن هذا الأسلوب الفلسفي لا يورث الإذعان في القلوب كما يفعل أسلوب القرآن الكريم. . فلم يحسنوا تمثيل مذهب

أهل السنة.. ولم ينالوا تقدير الأوساط الفلسفية كذلك، ذلك أنهم استغلوا هذه المصطلحات ولم يهضموها.

الفلسفة:

انتقلت الفلسفة إلى العربية بتوجيه من المأمون، وبفعل المترجمين، فقد ترجمت كتب كثيرة في المنطق والفلسفة من السريانية واليونانية والفارسية، وكان أكثرها لأرسطو. وكان فيها كتب المنطق، وكتب في الطبيعيات والرياضيات ـ وهي كتب علم لا يخاف على العقيدة منها ـ وفيها كتب في الإلهيات والميتافيزيقا، وهي بحوث في الإلهيات، بل هي علم الأصنام عند اليونان، فهي وثنية تعارض التوحيد.

وتشمل هذه الفلسفة التي بهرت بعض المسلمين على تخمينات، وطلاسم لفظية لا حقيقة لها ولا معنى، ولكن الذين بهرتهم براعة اليونان في المنطق والطبيعيات والرياضيات، أقبلوا على هذه الفلسفة الإلهية في شيء من التمجيد والتقديس، وتلقوها كصحيفة سماوية.

وقد تطوع لنشر هذه الفلسفة وشرحها رجال جندوا مواهبهم لها كيعقوب الكندي (٢٥٨ هـ) والفارابي (٣٩٩ هـ) وابن سينا (٤٢٨ هـ) وكانوا في إخلاصهم لها لا يقلّون عن فلاسفة اليونان وتلاميذهم.

وقد منعهم إجلالهم لأرسطو وتقديسهم له من أن يتناولوا أفكاره ونظرياته بالبحث والنقد فأخذوها على علاتها وعكفوا على دراستها وشرحها.

كان المعتزلة ـ على الرغم من تحكيمهم الفلسفة في الدين ـ يؤمنون بالنبوة والكتاب، وكانوا يفكرون التفكير الديني، ولكن الفلاسفة يختلفون عنهم اختلافاً أساسياً، فالفلسفة تتنافى مع النبوة وتعارضها في خط مستقيم، فكلما ازداد الناس خضوعاً للفلسفة ازدادوا استهانة بالأنبياء صلوات الله عليهم.

الباطنية:

ونشأت مع الفلسفة فتنة أخرى، كانت أضرَّ على الإسلام وتعاليم النبوة من الفلسفة، تلك فتنة الباطنية.

وكان معظم دعاتها أفراداً وأمماً فقدت سيادتها في تيار الفتوح الإسلامية، ولا مطمع في استردادها بالحروب والمقاومة المادية، أو رجالاً يدينون بالشهوات ويؤمنون بالإباحة وعبادة النفس، والإسلام يمنع ذلك أو يحدّ منه، أو رجالاً يطمحون إلى السلطة..

وقد اجتمع هؤلاء جميعاً تحت راية الباطنية، إذ هي التي تمنيهم بالوصول إلى غاياتهم، وقد شعر هؤلاء أن الإسلام ـ وهو لا يزال قوياً ـ لا يهزم في ميدان الحرب، وأن المسلمين ـ وهم أصحاب عاطفة دينية قوية ـ لا يمكن دعوتهم إلى الإلحاد السافر والكفر البواح، فإن هذا يشعل عاطفتهم ويضيع الفرصة، لذلك اختاروا أسلوباً يوصلهم إلى غاياتهم ضمن أنفاق..

فقد لاحظوا أن عقائد الإسلام وأحكامه إنما عرضت في ألفاظ تدل عليها، وقد تعينت معاني هذه الكلمات ومفاهيمها، وعرفت الأمة الإسلامية ذلك ودانت به، فالنبوة و «الرسالة» و «الملائكة» و

«المعاد» و «الحلال» و «الحرام» و «الصلاة» و «الصوم».. كل منها يؤدي معنى خاصاً، لا يختلف فيه اثنان، فإذا أطلقت كلمة «الصلاة» مثلاً، انتقل الذهن إلى هيئة عبادة خاصة.

وأدركوا بذكائهم أن هذه الصلة القائمة بين الكلمات والمصطلحات أساس تقوم عليه الحياة الإسلامية، ولهذه الصلة تدين الوحدة الفكرية التي يمتاز بها المسلمون. فإذا انقطعت هذه الصلة ـ بين الكلمات والمعاني ـ أصبحت الكلمات لا تدل على معنى خاص، وتسرب الشك والاختلاف إليها. وبهذا تصبح الأمة فريسة لكل دعوة وفلسفة.

قالوا: «إن لظواهر القرآن والأحاديث بواطن تجري من الظواهر مجرى اللب من القشر، وإنها بصورتها توهم الجهال صوراً جلية، وهي عند العقلاء رموز وإشارات إلى حقائق خفية، وإن من تقاعد عقله عن الغوص على الخفايا والأسرار، والبواطن والأغوار، وقنع بظواهرها، كان تحت الأغلال التي هي تكليفات الشرع، ومن ارتقى إلى علم الباطن سقط عنه التكليف، واستراح من أعبائه. قالوا: وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم﴾»[1].

ولما تقرر أن لكل لفظ شرعي ظاهراً وباطناً ـ والباطن هو اللب ـ استرسلوا في تقرير بواطن المصطلحات الشرعية حسب أهوائهم.. ومن كتاب (قواعد عقائد آل محمد) لمحمد بن الحسن الديلمي اليماني، من علماء أوائل القرن الثامن الهجري، وهو ثقة مأمون في النقل، ننقل هذا النص:

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص ١٠٢.

«يقولون: للشرائع باطن لا يعرفه إلا الإمام، ومن ينوب منابه، وكذلك كل ما ورد في الحشر والنشر وغيرها، فكلها أمثلة ورموز إلى بواطن: فمعنى الغسل: تجديد العهد عليه، ومعنى الجماع: مكالمة من لا عهد له بالباطن.. والطهور: التبرؤ من كل مذهب خالف الباطنية، والزكاة بث العلوم لمن يتزكى لها ويستحقها.. والحج: طلب العلم الذي تشد رحائل العقل إليه، والصفا: النبي، والمروة: علي..»[1]

ولم يقتصر دعاة الباطنية على التمييز بين الظاهر والباطن، وتفضيل الباطن، بل تدرجوا في استخفاف بالظاهر، حتى جعلوه موضع سخرية واستهزاء، يتقذره الإنسان ويتبرأ منه.

يقول الدكتور زاهد علي: «لقد كان الأئمة والدعاة يفهمون تلاميذهم من الطبقة العليا أن الظاهر متناقض ومعوج، وأنه علم كثيف، وأنه.. لا دليل عليه، وأنه لا حياة فيه، وأن أهل الظاهر هم أهل الكفر، بل أهل الشرك»[2].

وقد كانت الباطنية مؤسسة على الفلسفة اللاهوتية اليونانية، وعلى الطبيعيات، وقد استخدموا مصطلحات الفلسفة وأفكارها وعقائدها في أدبهم وشرح عقيدتهم بسخاء..

وقد انتقد ذلك العالم الإسماعيلي الدكتور زاهد علي في كتابه (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) يقول: «لقد اعتقدنا أن جميع النظريات التي جاءت في علم الهيئة القديم، وفي علم

(١) قواعد عقائد آل محمد ص١٧. وقد ذكر مثلها الغزالي في المستظهري.
(٢) كتاب (ديانتنا الإسماعيلية ونظامها) ص: ت.

الطبيعيات، وعلم الإلهيات، صحيحة لا يتطرق إليها الشك، فاستعنا بها على إثبات دعوتنا الإسماعيلية ونظامها وحدودها، وادعينا أن المسائل التي قدمناها حقائق علمية»[1].

ويقول: «لقد تناولنا معارف المعتزلة بشيء من التغيير، وأفرغناها في قالبنا، ولذلك يقال: إن أكثر معلومات الإسماعيلية ملتقطة من المعتزلة والفلاسفة»[2].

وقد ساعد الباطنية انتشارُ الفلسفة، والاضطراب الفكري الذي كان يسود المجتمع الإسلامي بصراع الفلسفة، وعلم الكلام الذي أدى إلى التقعر وتشقيق الشعرة، وقد ألفته الأذهان وأولع به الشبان، ووجد في المتعلمين وأنصاف المتعلمين ولع بالعلوم الغامضة.. فنفقت سوق الباطنية، وهبت ريحهم، واجتمع حولهم أناس بدوافع مختلفة وأغراض شتى. منهم من دفعه إليهم أخذ الثأر من الذين كانوا سبباً في ذهاب دولتهم وملكهم، ومنهم من دفعه بغض الدولة العباسية القائمة، وما يعانونه من ظلم.. وكثير منهم اندفع وراء إشباع الرغبات.. ومنهم من دفعه الغضب لأهل البيت والتشيع لهم.

وكانت الباطنية تنشر دعوتها باسمهم وتدعو إليهم.

ومهما اختلفت الدوافع فقد كسبت الباطنية شيعاً وأنصاراً، وأصبحت مؤسسة سرية يرهب جانبها، حتى أصبحت في زمن قريب قوة تحسب لها الحكومات الإسلامية الكبيرة الحساب

(١) المرجع السابق ص ٢٣.
(٢) المرجع السابق ص ٢٥.

الكبير. وأضحى كثير من رجالاتها ووزراء الحكومات صرعى الإرهاب، واغتيل نفوس كان غناؤها للإسلام عظيماً، كنظام الملك الطوسي، وفخر الملك، حتى أتى على المسلمين حين من الدهر ولا يعرف العالم منهم أو الوزير أو القائد إذا نام في الليل هل يصبح سالماً، أم يكون فريسة أحد الإرهابيين.

قال ابن الجوزي: واستفحل أمرهم بأصبهان، وآل الأمر إلى أنهم كانوا يسرقون الإنسان ويقتلونه ويلقونه في البئر، وكان الإنسان إذا دنا وقت العصر ولم يعد إلى منزله أيسوا منه[1].

تلك هي حال العالم الإسلامي في القرن الخامس. قد تواضعت على إضعافه الفلسفة والباطنية، وأحدثتا تبلبلاً فكرياً، يجره إلى الإلحاد في العقيدة، والتدهور في الأخلاق، والاضطراب في السياسة..

وكان في حاجة ملحة إلى شخصية قوية تردّ إليه الإيمان بالعقيدة، والاعتماد على مصادر الدين الأصلية..

ولقد رزق العالم الإسلامي - وهو في أشد حاجة وأدق ساعة - هذه الشخصية الفذة في منتصف القرن الخامس الهجري... تلك هي شخصية الغزالي[2].

(١) تلبيس إبليس ص ١١٠.
(٢) لخصت هذا الفصل من كتاب (رجال الفكر والدعوة) للعلامة أبي الحسن الندوي. ط ٤ دار القلم بالكويت ص ١٤٦ - ١٨٠.

الفصل الثاني

علماء المسلمين

صور لنا الفصل السابق المجتمع الذي نشأ فيه الغزالي، ذلك المجتمع الذي تتلاطم فيه أمواج الأفكار، وتتصارع فيه المذاهب.

فعلماء الكلام شغلهم التشدق والتقعر بفلسفة لم يهضموها.

والفلاسفة في برج عاجي يعدون أنفسهم الطبقة الراقية في المجتمع، إذ لا يفهمهم إلا ذوو العقول الحصيفة والأفكار المستنيرة..

والباطنية يرهبون الناس ويخيفونهم، ويفسدون الأفكار والعقائد والأخلاق..

ونتساءل: أين علماء المسلمين من فقهاء ومحدثين؟ وما دورهم في هذا المجتمع الصاخب؟

ونترك الكلام للإمام الغزالي - وهو واحد من العلماء - يحدثنا عن ذلك، حديث الخبير الذي عاش حياة علماء ذلك العصر بكل أبعادها.

ونستشف من كلامه أنه يقسم علماء عصره إلى فئتين:

فئة تطفو على السطح وهي التي تتقرب من الحكام والأمراء وهمُّها الدنيا.

وفئة أخرى سيطر عليها الغرور فهي مشغولة بغرورها.

أما الطائفة الأولى فجلّ اهتمامها من العلم بالخلافيات التي ينصح الإمام الغزالي بالبعد عنها فيقول:

«وأما الخلافيات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة، وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعهد مثلها في السلف، فإياك وأن تحوم حولها، واجتنبها اجتناب السم القاتل، فإنها الداء العضال، الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المنافسة والمباهاة..

وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال: الناس أعداء ما جهلوا.

فلا تظن ذلك، فعلى الخبير سقطت، فاقبل هذه النصيحة ممن ضيَّع العمر فيه زماناً، وزاد فيه على الأولين تصنيفاً وتحقيقاً وجدلاً وبياناً، ثم ألهمه الله رشده، وأطلعه على عيبه فهجره واشتغل بنفسه.

فلا يغرنك قول من يقول: الفتوى عماد الشرع، ولا يعرف علله إلا بعلم الخلاف، فإن علل المذهب مذكورة في المذهب، والزيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة، وكانوا أعلم بعلل الفتاوى من غيرهم، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب، ضارة مفسدة لذوق الفقيه..

وإنما يشتغل به [الجدل] من يشتغل لطلب الصيت والجاه،

ويتعلل بأنه يطلب علل المذهب..»[1].

ويبين لنا الغزالي كيف أصبح علم الخلافيات، هو العلم المقرب إلى السلاطين والأمراء فيقول:

«.. كان الخلفاء الراشدون أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه. وكانوا مستقلين بالفتاوى.. فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق.. اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم، فكان العلماء إذا طلبوا هربوا وأعرضوا.. فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء..

فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء، وإقبال الأئمة والولاة عليهم، مع إعراضهم عنهم، فطلبوا العلم توصلاً إلى نيل العز، ودرك الجاه من قبل الولاة.. فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة.. وطلبوا الولايات والصِّلاتِ منهم.. فأصبح الفقهاء - بعد أن كانوا مطلوبين - طالبين، وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم..

ثم ظهر بعدهم من الأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد، ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعلمت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام، فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتبوا فيه طرق المجادلات.. وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله..

ثم ظهر بعد ذلك من لم يستصوب الخوض في الكلام.. لما

(1) إحياء علوم الدين ١/٤١.

قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه، وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص، فترك الناس الكلام.. وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك.. وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع.. وأكثروا فيها التصانيف، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات، وهم مستمرون عليه إلى الآن. ولسنا ندري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار.

فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة، أو إلى علم آخر من العلوم، لمالوا أيضاً معهم، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين»[1].

وأما الطائفة الأخرى من العلماء، والتي سيطر عليها الغرور فهي فئات؛ وقد أطال الغزالي الحديث عن هذه الفئات. ونشير إليها باختصار شديد: قال:

- فرقة: أحكموا العلوم الشرعية والعقلية.. وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان.

- وفرقة: زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم..».

(1) إحياء علوم الدين ١/٤١ - ٤٢.

ـ وفرقة: اقتصروا على علم الفتوى في الحكومات والخصومات.. وخصصوا اسم «الفقه» بها وسموه: الفقه وعلم المذاهب. وربما ضيعوا ـ مع ذلك ـ الأعمال الظاهرة والباطنة.

ـ وفرقة: اشتغلوا بعلم الكلام، والمجادلة في الأهواء.. واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بأن يتعلم جدلهم، وما سموه أدلة عقائدهم.

ـ وفرقة: اشتغلوا بالوعظ والتذكير.. وغرور هؤلاء شديد، لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب..

ـ وفرقة استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة منه، وطلب الأسانيد الغريبة العالية.. وغرورهم من وجوه. منها أنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة، فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل..

ـ وفرقة...»[1].

والغزالي يعيب على هذه الفرق والفئات، نظرتها القاصرة، وتقدير عملها بأكثر مما هو عليه، فقصروا بسبب ذلك عن أداء مسؤوليتهم تجاه إسلامهم.. والأعداء يتربصون به في كل مكان.

ولا شك بأن الغزالي يعلم وجود طائفة ثالثة، تلك التي أخلصت دينها وعملها لله تعالى، ولكنها فئة قليلة، والكرام دائماً قليل، ومع ذلك فقد طغى على صوتها ضجيج الأصوات الأخرى، فما تكاد تسمعه إلا إذا أصخت السمع له.

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٨٨ ـ ٣٩٤.

الفصل الثالث

دورُ الغزاليّ

نشأ الغزالي في ذلك الجو الصاخب الذي وصفناه في الفصلين السابقين، فتعلم كما تعلم غيره من الناس.. وارتقى في المناصب بالأسلوب الذي ارتقى به العلماء في ذلك العصر، وقد ساعده على ذلك سرعة بديهته، وحسن عبارته.. وسعة علمه.

بهذا استطاع أن يحتل مكانته عند نظام الملك.. وبهذا استطاع أن يصل إلى «النظامية» في بغداد.

ويصف لنا معاصره عبد الغافر الفارسي ذلك بقوله: «واحتل من مجلس نظام الملك محل القبول، وأقبل عليه الصاحب لعلو درجته، وظهور اسمه، وحسن مناظرته، وجري عبارته.

وكانت تلك الحضرة محط رحال العلماء، ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقعت للغزالي اتفاقات حسنة من الاحتكاك بالأئمة، وملاقاة الخصوم اللدّ، ومناظرة الفحول، ومناقدة الكبار، وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتى أدت به الحال إلى أن رسم للمصير إلى بغداد، للقيام بتدريس المدرسة النظامية بها»[1].

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ٤/١٠٧.

ومن نعمة الله عليه ـ وعلى المسلمين ـ أن علمه لم يكن قاصراً على الجانب الذي هو الوسيلة للترقي في المناصب، فقد رأينا ـ في فصل سابق ـ سعة اطلاعه، وخوضه كل مجالات العلم. .

ولما استقر في النظامية ببغداد، وارتقىٰ أعلى منصب علمي في ذلك الوقت. . كانت عندها مرحلة الشك القوي التي أعقبها ذلك التحول في حياته.

يقول الدكتور سليمان دنيا:

«يمكننا أن نقسم حياة الغزالي إلى ثلاث فترات:

١ ـ الفترة التي سبقت شكه.

٢ ـ فترة الشك بقسميه.

٣ ـ فترة الاهتداء والطمأنينة.

أما الفترة التي سبقت شكه فيمكن التغاضي عنها، لأنه في هذه الفترة كان متعلماً لم يبلغ درجة النضج الفكري، الذي يُهيِّىء له أن يكون ذا رأي مستقل. وخصوصاً أن الغزالي حدثنا أن الشك قد أتاه مبكراً على قرب عهد بسن الصبا.

وأما الفترة الثانية: فنستبعد منها أيضاً فترة الشك العنيف، لأنه لم ينتج فيها، فتبقى لنا فترة الشك الخفيف، وقد كانت طويلة المدى، لأنها ابتدأت منذ سن الصبا، إلى أن تصوف واهتدى.

وقد لاحظنا أن الغزالي خلالها ألَّف في علم الكلام، وألف

في نقد الفلسفة، وفي نقد مذهب الباطنية، وكان يقوم بالتدريس في مدرستي «نيسابور» و «بغداد»[(١)].

إن تعطش الغزالي للعلم، وتخلصه من التقليد، في وقت مبكر وكثرة الفرق في مجتمعه، هو الذي ولَّد عنده الشك، ولكنه كان شكاً خفيفاً يدفع إلى البحث والعلم والاستطلاع، بحثاً عن الحقيقة. ولذا قرأ الغزالي كتب الباطنية والفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة. . وكتب في ذلك. . لقد كانت مرحلة استطلاع وسبر للحقائق التي تمتلكها كل فرقة. . وقد ساعدته كتابته في هذه الموضوعات على تعرفٍ أفضل لتلك المذاهب، فالكتابة في بحث. . غير القراءة عنه.

ولما استقر في بغداد أتيح له أن يراجع حسابه، ويقارن بين تلك المذاهب بعد أن حدد منهج البحث والمقاييس التي ستكون المرجع في الإرشاد إلى الحق. .

ويحدثنا الغزالي عن فترة الشك القوي عنده وما أعقبها فيقول:

«فأعضل هذا الداء، ودام قريباً من شهرين، أنا فيها على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال»[(٢)].

«ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله، وسعة جوده، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١ ـ المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

---

(١) تهافت الفلاسفة. تحقيق الدكتور سليمان دنيا ط ٥ ص ٦٣.
(٢) المنقذ من الضلال، بتقديم عبد الحليم محمود ص ٩٣.

٢ ـ الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ ـ الفلاسفة: وهم يدعون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ ـ الصوفية: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع..

فابتدرت لسلوك هذه الطرق. واستقصاء ما عند هذه الفرق: مبتدئاً بعلم الكلام، ومثنياً بطريق الفلسفة، ومثلثاً بتعليم الباطنية، ومربعاً بطريق الصوفية»[1].

ونحاول بيان موقف الإمام الغزالي من كل من هذه المذاهب:

(١) المصدر السابق ص ٩٥.

الفصل الرابع

الغزالي وعلم الكلام

ما من شك في أن الغزالي ألف كتباً في علم الكلام، وكان ذلك قبل مراجعة حسابه التي نتحدث عنها، ونترك الكلام له يحدثنا عن ذلك:

«إني ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علماً وفياً بمقصوده، غير وافٍ بمقصودي.

وإنما مقصوده، حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها من تشويش أهل البدعة.

فقد ألقى الله تعالى إلى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته القرآن والأخبار.

ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة، فَلَهِجُوا بها، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها.

فأنشأ الله طائفة المتكلمين، وحرك دواعيهم لنصر السنة بكلام

مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدعة المحدثة.. فمنه نشأ علم الكلام وأهله..»[1].

هكذا نشأ علم الكلام، ويصرح الغزالي أنه لم يف بحاجته عند الفحص، ووجده قاصراً عن أداء المهمة الموكلة إليه، خاصة وأن أصحابه قد أكثروا الخوض فيه، وخاضوا في البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها.. ولم يحصل من علمهم ما يمحو ظلمات الحيرة[2].

ولهذا لما تحدث الغزالي في كتابه (الإحياء) عن العلوم لم يعدَّ علم الكلام علماً، وقال:

«اعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع.. وإما مشاغبة بالتعلق بمناقضات الفرق لها، وتطويل بنقل لمقالات أكثرها ترهات وهذيانات، تزدريها الطباع وتمجها الأسماع، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين..»[3].

ثم بين أن ذلك لم يكن في الصحابة فقال: «.. فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، كلهم علماء بالله، أثنى عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام»[4].

(١) المنقذ من الضلال، بتقديم عبد الحليم محمود ص ٩٦ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق ص ١٠١
(٣) إحياء علوم الدين ١/٢٢.
(٤) إحياء علوم الدين ١/٢٣.

وقد بين الغزالي أن بعض الفرق ضلت بسلوكها طريق علم الكلام، ولفت النظر إلى أن القرن الأول لم يسلكوا هذا المسلك فقال:

«ولكنه... عميت بصيرته، فلم يلتفت إلى القرن الأول، فإن النبي ﷺ شهد لهم بأنهم خير الخلق، وأنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى، فما جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات.. وإذا رأوا مصراً على ضلالته هجروه وأعرضوا عنه وأبغضوه في الله، ولم يلزموا الملاحاة معه طول العمر، بل قالوا: إن الحق هو الدعوة إلى السنة، ومن السنة ترك الجدل في الدعوة إلى السنة، إذ روى أبو أمامة الباهلي عن النبي ﷺ أنه قال: (ما ضل قوم قط بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل..)[1].

ثم إنهم رأوا رسول الله ﷺ وقد بعث إلى كافة أهل الملل، فلم يقعد معهم في مجلس مجادلة لإلزام وإفحام وتحقيق حجة، ودفع سؤال وإيراد إلزام، فما جادلهم إلا بتلاوة القرآن المنزل عليهم، ولم يزد في المجادلة عليه، لأن ذلك يشوش القلوب..»[2].

وبيَّن الغلط في إطلاق لفظ «التوحيد» على علم الكلام فقال:

«لفظ التوحيد: وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق المجادلة، والإحاطة بطرق مناقضات الخصوم،

(١) رواه الترمذي وابن ماجه. قال الترمذي: حسن صحيح.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/٣٩٤ ـ ٣٩٥.

والقدرة على التشدق فيها. حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد، وسمي المتكلمون: العلماء بالتوحيد، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة، لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول، بل كان يشتد منهم النكير على من كان يفتح باباً من الجدل والمماراة.

فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع، فلقد كان ذلك معلوماً للكل، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله.

وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر، لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل..»[1].

وخلاصة القول: فإن الغزالي أسقط هذا العلم من قائمة العلوم ولم يعدّه علماً، وذلك:

- لعدم وفائه بمقصوده.

- أنه لم يكن في السلف، وهو مغاير لمنهجهم.

وهو موقف جديد اتخذه بعد مراجعة الحساب..»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٣٣.

(٢) من الغريب بعد هذه النصوص الصريحة عن موقف الغزالي من علم الكلام أن يعدّه الإمام ابن تيمية في عداد «الذين يعظمون أمر الكلام الذي يسمونه أصول الدين، حتى يجعلون مسائله قطعية..»!! انظر كتاب «الاستقامة» ١/٤٨ بتحقيق محمد رشاد سالم. ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

الفصل الخامس

الغزالي والفلسفة

قال الغزالي: «ثم إني ابتدأت - بعد الفراغ من علم الكلام - بعلم الفلسفة..».

ويصور لنا حال علماء المسلمين حيالها وعجزهم عن التصدي لها فيقول:

«ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك. ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم - حيث اشتغلوا بالردّ عليهم - إلا كلمات معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد، لا يظن الاغترار بها بعاقل. فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم، فعلمت: أن رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه، رمي في عماية».

«وعلمت يقيناً: أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويتجاوز درجته، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره وغائله، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقاً».

هذا الأمر، هو الذي فات علماء المسلمين الآخرين، الذين كان جلّ موقفهم هو اللعن والتكفير دون معرفة بحقائقها.

دراسته للفلسفة:

وقام الغزالي بما لم يقم به غيره من العلماء، بل بما عجز عنه غيره.. فعزم على دراسة الفلسفة، قال: «فشمرت عن ساق الجد في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة، من غير استعانة بأستاذ، وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس.. فأطلعني الله سبحانه على منتهى علومهم في أقل من سنتين.

ثم لم أزل أواظب على التفكير فيه بعد فهمه، قريباً من سنة، أعاوده، وأردده، وأتفقد غوائله وأغواره. حتى اطلعت على ما فيه من خداع، وتلبيس، وتحقيق وتخييل، اطلاعاً لم أشك فيه».

وقد قدم لنا خلاصة دراسته تلك في تحليل دقيق في كتابه القيم «المنقذ من الضلال»:

فقسم الفلاسفة ـ على كثرة فرقهم ـ إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

وبين أن القسم الأول جحدوا الصانع المدبر القادر، وهم الزنادقة.

والصنف الثاني: أكثروا في بحثهم عن الطبيعة وعجائب الحيوان والنبات، وعلم تشريح أعضاء الحيوان.. وزعموا أن النفس تموت ولا تعود.. فجحدوا الآخرة.. وهم زنادقة أيضاً.

والصنف الثالث: الإلهيون: مثل سقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس، والأخير رتب لهم المنطق، وهذب لهم العلوم.

وهم بجملتهم: ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية، وكفى الله المؤمنين القتال.

ثم رد «أرسطو» على أفلاطون وسقراط ولكنه استبقى من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين كـ «ابن سينا» و «الفارابي» وأمثالهما.

وبين أن الفارابي وابن سينا كانا أمينين بنقل علم أرسطو.

ثم قسم علوم الفلسفة إلى ستة أقسام: رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية.

ـ أما الرياضية: فتتعلق بعلم الحساب والهندسة.. وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً. بل هي أمور برهانية، لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها.

ـ وأما المنطقيات: فلا يتعلق شيء منها بالدين، نفياً وإثباتاً، بل هو النظر في طرق الأدلة والمقاييس.

ـ وأما علم الطبيعيات: فهو بحث في عالم السماوات، وكواكبها.. والماء، والهواء..، وليس من شرط الدين إنكار ذلك العلم.

ـ وأما الإلهيات: ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الخلاف فيما بينهم.

ومجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر.

أما المسائل الثلاث: فقد خالفوا فيها كافة المسلمين وهي:

١ ـ قولهم: إن الأجساد لا تحشر.

٢ ـ وقولهم: إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات.

٣ ـ وقولهم بقدم العالم وأزليته.

ـ وأما السياسات: فمجموع كلامهم فيها يرجع إلى الحكم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية.

ـ وأما الخلقية: فجميع كلامهم فيها يرجع إلى حصر صفات النفس وأخلاقها[١].

وبهذا الوضوح الذي لا مثيل له كشف الغزالي ما وراء كلمة «الفلسفة» التي كانت لغزاً من الألغاز وطلسماً من الطلاسم.

من الدفاع إلى الهجوم

«يمتاز الغزالي عن كل من سبقه في محاربة الفلسفة، أنهم اتخذوا موقف الدفاع عن الإسلام وعقائده، والاعتذار عن الدين الإسلامي، فكانت الفلسفة تهاجم الإسلام، وهؤلاء يدافعون عن الإسلام، وينفون التهم الموجهة إليه، ويحاولون أن يبرروا مواقفه، ويلتمسوا العذر لعقائده ونظرياته.

فكأن علم الكلام كان جنة تتلقى هجمات الفلسفة، وتحصن

(١) المنقذ من الضلال. مختصراً، وما بين الأقواس نصه. ص ١٠٣ ـ ١٢٤.

العقيدة الإسلامية، ولم يجترىء أحد من المتكلمين أن يهاجم الفلسفة ويغزوها في عقر دارها، لعدم تعمقهم في الفلسفة وتضلعهم من أصولها وفروعها، ولعدم تسلحهم بالأسلحة التي يواجهون بها الفلسفة، ويوسعونها جرحاً ونقداً، فكان موقفهم موقف الدفاع عن قضية، وموقف الدفاع دائماً ضعيف. غايته أن يسامح المتهم..

أما الغزالي، فقد هاجم الفلسفة، وتناولها بالفحص والنقد، وهجم عليها هجوماً عنيفاً مبنياً على الدراسة والبحث العلمي، وحجة مثل حجة الفلسفة، وعقل مثل عقل الفلاسفة الكبار ومدوني الفلسفة، وألجأ الفلسفة إلى أن تقف موقف المتهم، وألجأ ممثليها إلى أن يقفوا موقف المدافعين.

فكان تطوراً عظيماً في موقف الدين والفلسفة، وكان انتصاراً عظيماً للعقيدة الإسلامية، عادت به الثقة إلى نفوس أتباعها والمؤمنين بها، وزالت عنهم مهابة الفلسفة وسيطرتها العلمية»[١].

إزالة الهالة عن الفلسفة:

وقد كان الغزالي واعياً لحجم المعركة مع الفلاسفة، ولذلك أعدَّ لهذه المعركة العدة اللازمة مادياً ونفسياً، وخطط لها، ووقت لها كما يريد.. ولقد استخدم كل وسائل علم النفس التي تؤثر على معنويات العدو، وترفع من معنويات الصديق..

إنه لم يبدأ بالهجوم حتى اطمأن إلى أن عدته قد أضحت جاهزة فاعلة.

(١) عن (رجال الفكر والدعوة) للعلامة أبي الحسن الندوي ص ٢٠٦.

كانت الفلسفة محجوبة عن أوساط الناس بمباحث غامضة معقدة، استعملت فيها لغة رمزية بعض الأحيان، في أسلوب غير واضح. ولعل مؤلفيها قد تعمدوا ذلك لتبقى حكراً على طبقة معينة، الأمر الذي يرفع من قيمتها، ويجعل لها تلك الهالة من الاحترام والتقدير، مما يجعل عامة الناس لا يفكرون في التطلع إلى التعرف عليها.

ورأى الغزالي أن تكون الخطوة الأولى في هذه المعركة، تقديم معلومات الفلسفة بلغة مبسطة يستطيع أوساط الناس التعامل معها وفهمها، وقد أوتي الغزالي قدرة عجيبة على تبسيط المسائل المعقدة وتقريبها إلى الأفهام، وسهَّل له هذه المهمة علم كامل بدقائق الفلسفة وكلياتها فكانت الخطوة الأولى.. وكان كتاب «مقاصد الفلاسفة».

ألف الغزالي كتابه «مقاصد الفلاسفة» وذكر فيه المصطلحات الفلسفية، وبحوث الفلسفة، وعرضها أحسن عرض، الأمر الذي لم يحسنه رجال الفلسفة، وذلك دون أن ينتقدها أو يعلق عليها.

وقد برهن الدكتور سليمان دنيا في مقدمته الثانية لكتاب (تهافت الفلاسفة) على أن عرض الغزالي لمسائل الفلسفة كان أحسن من عرض الفلاسفة أنفسهم لهذه المسائل، عندما قارن في بعض المسائل بين أسلوب الغزالي، وأسلوب ابن سينا، وخلص إلى القول بأن منهج الغزالي أوضح وأدق[1].

وبطرح كتاب «مقاصد الفلاسفة» استطاع الغزالي أن يحقق

(١) تهافت الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا ص ٢٣، ٢٩ ط ٥.

أموراً هامة تضمن له كسب المعركة القادمة دون أن يشعر أحد..

- فقد أزال الهالة الكبيرة عن الفلسفة وجعلها في المتناول..

- اعترف له الجميع - بما فيهم الفلاسفة - بالأستاذية في هذا الفن، كما هو شأنه في كثير من الفنون الأخرى. الأمر الذي مهد له السبيل إلى أن يقول كلمته فيما بعد.. فيجد من يستمع إليها. وقد ظن الفلاسفة يومئذٍ أنهم كسبوا إلى صفهم عَلَماً جديداً من أساطين الفلسفة.

- حدد الغزالي ما ينبغي الوقوف عنده من الفلسفة حين أرجعها إلى ستة أصول، وأن أكثر هذه الأصول لا تتعارض مع الدين.. فألقى الأضواء بذلك على مكان المعركة المرتقب.

وقد بين الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) أن الفلسفة انتصرت ووقفت على رجليها بآفتين:

- إحداهما: نابعة من خبث الذين يعرضون آراءهم الفلسفية.

- والثانية: نابعة من جهل المندفعين في الدفاع عن الإسلام بإنكار الفلسفة كلياً. وقال في بيان هاتين الآفتين:

«الأولى: إن من ينظر فيها [أي في الرياضيات التي هي من الفلسفة يومئذٍ] يتعجب من دقائقها، ومن ظهور براهينها، فيحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم - في الوضوح، وفي وثاقة البرهان - كهذا العلم، ثم يكون قد سمع من كفرهم، وتعطيلهم، وتهاونهم بالشرع، ما تداولته الألسنة، فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدين حقاً، لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم.. فهذه آفة عظيمة..

الآفة الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدين ينبغي أن ينتصر بإنكار كل علم منسوب إليهم: فأنكر جميع علومهم، وادعىٰ جهلهم فيها، حتىٰ أنكر قولهم في الكسوف والخسوف وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع، فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه، لكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل، وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حباً، وللإسلام بغضاً.

ولقد عظمت على الدين جناية من ظن أن الإسلام ينصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية»[1].

ضربة قاصمة:

وبعد أن أخذ الغزالي مكانته في المجتمع كفيلسوف يشهد له الجميع.. ألف كتابه (تهافت الفلاسفة) الذي قيل عنه: «إنه طعن الفلسفة طعنة لم تقم لها بعدُ في الشرق قائمة»[2].

يقول الدكتور سليمان دنيا:

«واختار له اسم (تهافت الفلاسفة) وعنى بهذا الاسم ـ فوق دلالته على الكتاب ـ التشهير بالفلاسفة، والإعلان عنهم بأنهم متهافتون، فحسب من يقرأ عنوان الكتاب فقط، أو حتى يسمع به، أن يعرف أنه محاولة لإثبات تهافت الفلاسفة.

وعنى بالتهافت ما أوضحه في المقدمة الأولى من نفس الكتاب

(١) المنقذ من الضلال. بتقديم عبد الحليم محمود ص ١١٤ ـ ١١٥.
(٢) تهافت التهافت. تحقيق الدكتور سليمان دنيا ص ١٥ ط ١.

بقوله: «.. فلنقتصر على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي هو الفيلسوف المطلق والمعلم الأول».

فالتهافت الذي اختاره مضافاً إلى الفلاسفة، معناه التناقض، أي تناقض الفلاسفة، يعني تناقض أفكارهم وتعارضها وتساقطها، وليس كالتناقض اسم يؤدي ما يؤديه من دلالة على هوان الفكر الموصوف به، وسخفه، وحقارته، فكان الغزالي أقسى ما يكون على الفلاسفة بهذه التسمية»[1].

ويقول الأستاذ أبو الحسن الندوي في وصف الكتاب:

«ويتسم هذا الكتاب بقوة التعبير، وسلامة العبارة، وسهولة الأسلوب، بخلاف عامة الكتب التي ألفت في الموضوع، ويدل على أن مؤلفه ممتلىء بالإيمان والثقة بدينه، والاعتداد بشخصيته وتفكيره، ينظر إلى الفلاسفة القدماء كأقران وزملاء، ورجال من مستواه العقلي والفكري، يناقشهم ويباحثهم بحرية واعتماد، ويقرع الحجة بالحجة.

وكان المسلمون في حاجة شديدة إلى هذا الطراز من المؤلفين والباحثين، الذي يواجه الفلسفة بإيمان وثقة، وعقل حر، وشجاعة علمية، يكفر بعصمة الفلاسفة وقدسيتهم وعبقريتهم، وكونهم فوق مستوى البشر في العقل والتفكير. وبهذه الصفة يتجلى الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) فجاء في أوانه، وقضى حاجة زمانه»[2].

«ويشرع الغزالي ـ بعد أربع مقدمات ذكر فيها منهاجه ـ في

(١) المصدر السابق ص ١٥.
(٢) رجال الفكر والدعوة ص ٢١٣.

البحث، وشرح حال الفلاسفة، وفرق علومهم التي تصادم الشريعة، والتي لا تصادمها، وناقش الفلاسفة في شرائعهم ومقدماتهم للبحوث الإلهية، وبعد هذا كله يشرع الغزالي في بيان مسائل الفلاسفة ومناقشتهم في ذلك، في ضوء البحث العلمي والحجة العقلية، وهي ست عشرة مسألة في الإلهيات وما بعد الطبيعيات، وأربع في الطبيعيات، ويبين فيها ضعف استدلالهم وتناقضهم واختلافهم وتهافت عقيدتهم»[1].

وقد ساعد الغزالي على نجاحه في تسديد هذه الضربة القاصمة أمور منها:

ـ التمهيد لها كما رأينا..

ـ تحديد ميدان المعركة وهو الجانب الإلهي من الفلسفة، واستبعاد الجوانب الأخرى من رياضيات ومنطق..

ـ مكانة الإمام الغزالي وعلمه بدقائق الفلسفة كما يعلمها كبار الفلاسفة. وقد أشرنا إلى كلامه بهذا الصدد في أول البحث.

ـ استعماله كل الأسلحة التي توفرت لديه، فهو يقول في حديثه عن ذلك:

«ليعلم أن المقصود تنبيه من حسن اعتقاده في الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض، ببيان وجوه تهافتهم، فلذلك أنا لا أدخل في الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدع مثبت، فأبطل عليهم ما اعتقدوه مقطوعاً بإلزامات مختلفة، فألزمهم تارة مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرامية، وطوراً

(1) المصدر السابق ص ٢١٢.

مذهب الواقفية، ولا أنتهض ذاباً عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلباً واحداً عليهم، فإن سائر الفرق ربما خالفونا في التفصيل، وهؤلاء يتعرضون لأصول الدين، فلنتظاهر عليهم، فعند الشدائد تذهب الأحقاد»[1].

فقد كان يدرك الإمام الغزالي خطورة هذه المعركة، ولذلك أعد لإنجاحها كل الوسائل التي أمكنه جمعها.. وذلك دليل آخر على حصافة الرجل وعظم قدره.

قال الدكتور القرضاوي في التقديم لكلمة الغزالي هذه:

«إن الغزالي حين وقف في وجه الفلسفة الغازية لم يقف محارباً لها باعتباره سنياً، أو أشعرياً، أو شافعياً، بل باعتباره مسلماً فحسب، وهذه الفلسفة تريد أن تقتلع جذور الجميع، ولا تبقي للدين باقية، فهو لهذا يستمد أسلحته من جميع الفرق والمذاهب، ويعبىء كنانته من كل سهم يجده عند هذا المذهب أو ذاك»[2].

وقد كان الغزالي واثقاً من انتصاره بعد أن أحكم الوسائل، وخطط للمعركة التخطيط السديد، ولذلك نجده ـ وقد نزل إلى ساحة المعركة ـ غير مبال بخصمه، ساخراً منه، مستهزئاً بعقله الذي يتبجَّحُ به..

ولننظر إلى بعض النصوص التي أوردها في كتابه (تهافت الفلاسفة) وهو يستعمل سلاح السخرية:

(1) تهافت الفلاسفة ص ٨٢.
(2) الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه. للدكتور يوسف القرضاوي ص ٢٨.

«قلنا: ما ذكرتموه تحكمات، وهي على التحقيق ظلمات فوق ظلمات، لو حكاها الإنسان عن منام رآه، لاستدل به على سوء مزاجه»[1].

قال ذلك في مقام الحديث عن نشأة الكائن الأول الواحد عن الإله، ونشأة ثلاثة كائنات عن هذا الكائن الأول الواحد. .

وقال: «. . فلست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع، فضلاً عن العقلاء الذين يشقون الشعر - بزعمهم - في المعقولات»[2].

ومما دفعه إلى هذا الأسلوب موقفهم المشابه من الإسلام والمسلمين، وإلا فالغزالي يحترم العلم ويقدر أهله ولكن هؤلاء جاهروا بالكفر وترفعوا على الناس وظنوا بأنفسهم الفطنة - كما يقول في المقدمة - فاستحقوا هذا الأسلوب.

وفي مقدمة الكتاب هجوم عنيف، وكأن المؤلف أرادها ضربة أولى تفقد الخصم صوابه، فيصبح عاجزاً عن تدارك أمره. ولولا الإطالة لأتيت على ذكرها فهي نص أدبي رائع في معناه ومبناه.

خلاصة عمل الغزالي:

نستطيع تلخيص عمل الغزالي في ميدان الفلسفة بما يلي:

١ - حاربها دفاعاً عن الإسلام وخدمة له، وقد كانت الفلسفة حرباً على الدين.

(١) تهافت الفلاسفة: تحقيق الدكتور سليمان دنيا ص ١٤٦ ط ٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٥٣.

٢ - لم يحارب الفلسفة كلها، إنما حدد معركته مع «الفلسفة الإلهية الإغريقية».

٣ - أبعد عن الفلسفة العلوم الأخرى التي كانت منضوية تحت لوائها، فجعلها وحيدة بعيدة عن جنودها الذين كانت تستخدمهم كسياج في الدفاع عنها. وقد أصبحت هذه العلوم فيما بعد مستقلة قائمة بذاتها مثل: الرياضيات، والطبيعة (الفيزيا)، والمنطق، وعلم الأخلاق، والسياسة.

٤ - رفع الحصانة عنها، وأزال تلك الهالة التي كانت تضفي عليها التقديس والاحترام وأثبت أنها مجموعة أفكار وتخيلات، وقياسات وتخمينات. .

وهكذا لم ير الغزالي فيها بعد تعريتها ما يصلح أن يكون «علماً» ولذلك عندما تحدث في كتابه (الإحياء) عن العلوم لم يعدَّ الفلسفة علماً وأوضح ذلك بقوله:

«وأما الفلسفة فليست علماً برأسها بل هي أربعة أجزاء:

أحدها: الهندسة والحساب.

الثاني: المنطق: وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه. .

الثالث: الإلهيات. . وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أصحابه طائفة من المتكلمين. . فكذلك الفلاسفة.

الرابع الطبيعيات: وبعضها مخالف للشرع. . وبعضها بحث عن صفات الأجسام. .»[1].

(١) إحياء علوم الدين ٢٢/١.

ويعطينا خلاصة رأيه في كتابه (المنقذ من الضلال) فيقول:

«ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة، وتحصيله، وتفهيمه، وتزييف ما يزيف منه، علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض، وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات..»[1].

موقف العلماء من فلسفة الغزالي:

إن المعارك الفكرية ليست بأقل خطراً في حياة الأمة من المعارك العسكرية، ذلك أن الغزو الفكري أسوأ وأشد خطراً على الأمة من الغزو العسكري..

ولقد انتصر الغزالي في معركته مع الفلسفة دفاعاً عن الإسلام، فاستطاع ـ في أقل التقديرات ـ أن يرد الفلسفة، فيجعلها في موقع الدفاع بعد أن كانت في موقع الهجوم.

فعل ذلك بمفرده في ظروف صعبة قاسية، فاستحق عن جدارة أن يكون «حجة الإسلام» وانفرد بهذا اللقب الذي يبين مكانة الرجل.. في تاريخ الفكر.

ولقد قدر العلماء الواعون جلالة هذا العمل، وأدركوا عظم أثره، فأثنوا على الرجل خيراً وشكروا له صنيعه..

قال تقي الدين السبكي: «جاء «الغزالي» والناس إلى ردّ فرية الفلاسفة أحوج من الظلماء لمصابيح السماء، وأفقر من الجدباء

(١) المنقذ من الضلال. بتقديم عبد الحليم محمود ص ١٣٠.

إلى قطرات الماء، فلم يزل يناضل عن الدين الحنيفي بحلاوة مقاله، ويحمي حوزة الدين، ولا يلطخ بدم المعتدين حدَّ نصاله، حتى أصبح الدين وثيق العرى، وانكشفت غياهب الشبهات. وما كانت إلا حديثاً يفترى..»[1].

ولكن فريقاً آخر من العلماء نقم على الغزالي اشتغاله بالفلسفة، وهؤلاء لم يستطيعوا أن يقدروا خطر الفلسفة حق قدره، ولم يبحثوا عن الأسباب التي دفعت الغزالي إلى دراستها، وإنما نظروا إليه من زاوية كرههم للفلسفة فكرهوا الرجل..

وفي هؤلاء وأمثالهم يقول تقي الدين السبكي: «.. وأما ما ذكره الشيخ تقي الدين ابن الصلاح من عند نفسه، ومن كلام يوسف الدمشقي والمازري، فماأشبَّه هؤلاء الجماعة ـ رحمهم الله ـ إلا بقوم متعبدين سليمة قلوبهم، قد ركنوا إلى الهوينا، فرأوا فارساً عظيماً من المسلمين، قد رأى عدواً عظيماً لأهل الإسلام فحمل عليهم، وانغمس في صفوفهم، وما زال في غمرتهم حتى فلَّ شوكتهم، وكسرهم، وفرق جموعهم شذر مذر، وفلق هام كثير منهم، فأصابه يسير من دمائهم، وعاد سالماً، فرأوه وهو يغسل الدم عنه، ثم دخل معهم في صلاتهم وعبادتهم، فتوهموا أيضاً أثر الدم عليه، فأنكروا عليه. هذا حال الغزالي وحالهم..»[2].

ونتساءل: كيف يتصور هؤلاء الناقدون إمكانية القضاء أو رد الفلسفة إن لم يكن ذلك بالأسلوب الذي اتبعه الغزالي؟!.

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٠٢/٤.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٢٩/٤.

ولقد رأينا في أول هذا الفصل قول الغزالي: إنه لا بد للوقوف على فساد علم.. من دراسته حتى يكون الدارس أعلم بهذا العلم من صاحبه.. وهذا ما فعله الغزالي، وإذا كان الذي يتعلم الفلسفة يصبح فيلسوفاً.. فإن الغزالي بهذا المعنى فيلسوف.

إن العلم شيء، والاعتقاد والعمل شيء آخر.. فهل يتصور أن الإمام الغزالي كان يؤمن بآلهة الإغريق الوثنية التي جاءت الفلسفة الإلهية الإغريقية لتكرّس تقديسها؟!

إن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عندما أراد نقض المنطق اليوناني.. هل يتصور أنه نقضه وهو جاهل به!! ما من شك أنه كان على علم بدقائقه.. ثم تصدى له بعد ذلك:

قال الدكتور محمد رشاد سالم: «وأما ابن تيمية فهو يكشف بطريقة منهجية فساد هذا المنطق وقد ألف عدة كتب في الرد على المنطق، ضاع بعضها، ولكن يوجد بين أيدينا منها كتاب (نقض المنطق) والجزء الأخير منه يرد فيه على المنطق...»[١].

فهل يرد على المنطق دون علم به؟!.

لقد سلك ابن تيمية الطريق نفسها التي سلكها الغزالي في نقض الفلسفة.. فقد عكف على دراسة المنطق.. ثم أعد العدة لنقضه.. بل وفعل كما فعل الغزالي من الاستعانة بآراء الفرق الأخرى للوصول إلى غايته:

---

(١) كتاب (مقارنة بين الغزالي وابن تيمية) للدكتور محمد رشاد سالم ص ٢٩ ط دار القلم ـ الكويت.

يقول الدكتور سالم بعد أن ذكر استفادة ابن تيمية من آراء المذاهب الأربعة وغيرها.. «بل إن ابن تيمية يستفيد من كل المفكرين والنظار فيما كان فيه التأييد والتدعيم لمذهب أهل السنة والجماعة، فهو يقرر في كتاب «الرد على المنطقيين» أنه استفاد من كتاب «الدقائق» للباقلاني ـ وهو أشعري ـ ومن كتاب ابن النوبختي الشيعي الاثني عشري في رده على المنطق»[١].

ما من شك أن الإمام ابن تيمية استفاد من الغزالي طريقته في حرب الفلسفة وطبقها في حرب المنطق[٢].

وإذا كان هذا هو الأسلوب الذي لا بد منه، فهل يلام الإمام

---

(١) المرجع السابق ص ٢٤.

(٢) من الغريب أن الدكتور محمد رشاد سالم يتخذ موقفين مختلفين من قضية واحدة:

فقد علق على قول الغزالي في استعانته بآراء المعتزلة وغيرهم في دحض الفلسفة، والذي سبق ذكره خلال هذا الفصل، بقوله: «وهذا يعني أن الغزالي في سبيل هدم الفلسفة وبيان تناقضها وتهافتها لا مانع عنده من أن يأخذ أقوال خصومه من المعتزلة والكرامية وغيرهم. وهذا منهج يخالف الحق، ويخالف منهج ابن تيمية مخالفة تامة» ص ١٨.

ثم أثنى على ابن تيمية في استفادته من الباقلاني الأشعري ومن ابن النوبختي الشيعي وقال:

«فهو يأخذ من كل معين يجد فيه نصرة لمذهب أهل السنة ولما يؤمن بأنه الحق..» ص ٢٤.

[انظر: مقارنة بين الغزالي وابن تيمية للدكتور سالم].

أقول: إن الموقف واحد. فلماذا كان حقاً عندما يكون من ابن تيمية، ويكون مخالفاً للحق عندما يكون من الإمام الغزالي؟!.

ولكننا نعذره فقد التزم عدم الحياد في مقدمة كتابه عندما قال: «ولن أحاول أن أدعي حياداً كاذباً بين الاتجاهين..»!! ص ٥.

الغزالي في أن أصبح فيلسوفاً ليدافع عن الإسلام.. وهل يلام ابن تيمية لتعلمه المنطق.. في سبيل الذب عن الإسلام.

إن هذا الفريق الذي ينتقد الغزالي، يَصْدُق فيه ما ذكره الغزالي عن صديق الإسلام الجاهل الذي ظن أن الدين ينتصر بإنكار كل ما هو منسوب إلى الفلسفة.

الفصل السادس

الباطنية

سبق الحديث في الفصل الأول من هذا الباب عن الباطنية، وما آلت إليه حالها في أواخر القرن الخامس الهجري.

وما كان للغزالي أن يتصدى للفلسفة ويترك الباطنية وهي أشد خطراً. ذلك أن الفلسفة كانت تعيش في عزلة علمية، وكانت قليلة الاتصال بالشعب والجمهور، كما يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي.

أما الباطنية، فكانت تتسرب إلى المجتمع وتنفث سمومها فيه، وكانت لها الإغراءات المادية القوية..

وقام الغزالي بهذه المهمة فدرس كتبهم ومقالاتهم، ثم رد عليها في عدد من كتبه.

وقد انتقد الغزالي في تقرير حججهم وبيانها، وقد حكى ذلك عن نفسه فقال:

«.. فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيباً محكماً، مقارناً للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض أهل الحق مبالغتي في تقرير حججهم وقال: هذا سعي لهم..».

ثم قال: «وهذا الإنكار من وجهة حق..».

ثم برر موقفه بأنه لم يتكلف لهم شبهة، بل حكى ما وصل إليه، وقد اشتهر، فأصبح الجواب عنها واجباً، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية[1].

ثم قال: «والحاصل: أنه لا حاصل عند هؤلاء، ولا طائل لكلامهم. ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت البدعة - مع ضعفها - إلى هذه الدرجة».

وبين بعد ذلك كيفية مناقشتهم في قضية «الحاجة إلى التعليم والمعلم»[2].

وتتابعت كتب الغزالي في الرد عليهم على فترات مختلفة، منها (فضائح الباطنية) الذي أثنى عليه الإمام ابن تيمية.. ونقل منه ابن الجوزي وغيره[3].

قال الدكتور القرضاوي:

«ومما يذكر للغزالي هنا: استمراره على نقد هذه الطائفة، وكشف اللثام عن تناقض أفكارها، وفضائح أعمالها، وسوء نواياها، برغم ما كان معلوماً في ذلك الوقت أن هذا النقد قد يكلفه حياته، وقد رأى بنفسه مصرع رجل الدولة الكبير الوزير نظام الملك، وفخر الملك - ابن نظام الملك - أيضاً.

وكان الباطنية يهددون كل من يرونه خطراً عليهم - من رجال

---

(١) المنقذ من الضلال، بتقديم عبد الحليم محمود ص ١٣٠ - ١٣١.
(٢) المصدر السابق ص ١٣٢.
(٣) الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه، للدكتور يوسف القرضاوي ص ٦٠.

الملك، أو رجال العلم - بالانتقام، في صورة طعنة من خنجر، أو سمّ يدس في طعام، أو غير ذلك من الأساليب التي أتقنوها، ونفذوها بكل دقة.

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على شجاعة الغزالي في صدعه بالحق، ومواجهة الباطل، مهما تكن النتيجة، ولن يصيبه إلا ما كتب الله له»[1].

* * *

تلك خلاصة البحث الذي قام به الغزالي، باحثاً عن الحق ومدافعاً في الوقت نفسه عن الإسلام في مواجهة التيارات المعادية له..

ثم قال: «ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية..». وهو ما نتحدث عنه في الباب التالي..

---

(١) المصدر السابق ص ٦١ - ٦٢.

البَابُ الثَالِثُ

الغَـزَالي والتصوف

التصوف . .

هذا المصطلح . .

لا يهمنا أن نضيع الوقت في البحث عن منشأ الكلمة، ولكن من المهم أن نحدد ما الذي تعنيه.

يذكر ابن خلدون أن التصوف أحد العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها، والانفراد عن الخلق، وهذه الصفات كانت عامة في الصحابة والسلف، ولما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة.

ويغلب على الظن أن هذا المصطلح كان إفرازاً أنتجه الواقع عندما بدأت تخصصات العلوم تأخذ أبعادها.

فقد كانت كلمة «الفقه» تشتمل على كل ما انضوى تحت كلمة التصوف، فلما اقتصر مفهوم كلمة الفقه على فقه العبادات وفقه المعاملات في جانبها الظاهر، استبعدت منه بحوث الأخلاق والسلوك. . كان لا بد لهذه الجوانب المستبعدة من الاستقلال والانضواء تحت عنوان يمثلها فكان التصوف.

ولا يهمنا أيضاً التفتيش عن تعريف للتصوف.. ولكن من السهل تعداد ما يشتمل عليه هذا العنوان:

فالأخلاق الكريمة هي الأساس.

والزهد الذي يعني الترفع على الدنيا - ولا يعني ذلك الفقر - هو الطريق.

وكثرة العبادة هي وسيلة القرب إلى الله تعالى..

وبتطبيق العلم مع الإخلاص تكون النجاة.

يقول الغزالي في رسالته «أيها الولد»:

«ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة، وينبغي لك ألا تغتر بشطح الصوفية وطاماتهم. لأن سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة وقطع شهوة النفس، لا بالطامات والترهات..».

تلك هي العناصر التي انضوت تحت هذا العنوان.. ثم تبعتها فضوليات ليست من الإسلام في شيء وهي التي أشار إليها الغزالي بالطامات والترهات.

وظهرت مصطلحات أخرى، مثل «أهل الإرادة» و «أرباب السلوك» التي استعملها ابن القيم رحمه الله.. ولكنها لم تنتشر انتشار المصطلح الأول.

ومن غير الصواب أن ينظر إلى الفضوليات التي أدخلت على التصوف على أنها الأصل، وتنسى العناصر الأصيلة. فيحارب التصوف كله بما فيه من حق ومن باطل.

ولكن الإنصاف هو الدقة في البحث فيقال لما هو صواب

صواب، ولما هو خطأ باطل، وهو المسلك الذي سلكه ابن تيمية رحمه الله وأشرنا إليه في تصدير الكتاب.

وإذا كان بعضهم يكره هذا المصطلح، فإنه مدعو إلى البحث عن مصطلح يحل مكانه، وقد اقترح بعضهم مصطلح «الزهد» ولكن الزهد هو بعض ما ينضوي الآن تحت «التصوف» ولذا فهو لا يفي بالغرض.

إننا بحاجة إلى مصطلح!!

الفصل الأول

لماذا التصوف؟

مراجعة حساب:

بينا في الباب السابق صورة العلماء ـ بشكل عام ـ والجو الذي نشأ فيه الغزالي بينهم، حيث كان باحثاً عن الجاه والألقاب والمنزلة ـ كما هو شأن كثير من العلماء في كل عصر ـ ولكن الغزالي بعد أن بلغ الذروة ولم يعد أمامه منزلة دنيوية يسعى إليها، سنحت له الفرصة، فراجع حسابه فإذا به يجد نفسه على شفا جرف هار..

ولنستمع إلى حديثه في ذلك، بلغته الواضحة وعبارته البليغة، قال:

«كان قد حصل معي ـ من العلوم التي مارستها، والمسالك التي سلكتها في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ـ إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر.

فهذه الأصول الثلاثة من الإيمان كانت قد رسخت في نفسي لا بدليل معين محرر، بل بأسباب وقرائن، وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها.

وكان قد ظهر عندي: أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله: قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى، وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن: الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق.

ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب.

ولاحظت أعمالي ـ وأحسنها التدريس والتعليم ـ فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس، فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت.

فتيقنت أني على شفا جرف هار، وأني أشفيت على النار، إن لم أشتغل بتلافي أحوالي..»[1].

هكذا يضع ـ رحمه الله ـ بين أيدينا صورة دقيقة لما كانت عليه حاله، لا يخفي علينا شيئاً من البواعث التي كانت وراء سعيه.. وأن النية لم تكن خالصة لوجه الله تعالى. ورأى نفسه مشرفاً على الخطر بعد أن اكتشف من نفسه ذلك..

ويبحث عن المخرج.. أهو في علم الفقه..؟ وله المصنفات فيه، أم هو في علم الكلام وله المصنفات فيه..؟

(١) المنقذ من الضلال ص ١٤١.

إنها علوم، العمل فيها هو العلم، وقد تعلم.. ولكنه لم يتعلم كيف يخلص لله تعالى، ولم يتعلم كيف يخلّص نيته من الشوائب..

عندها.. توجه إلى التصوف يبحث عن غايته هناك..

بدء الطريق:

ويوضح لنا كيف سلك طريقه إلى التصوف فيقول:

«ثم إني.. أقبلت بهمتي على طريق الصوفية. وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل.

وكان حاصل عملهم: قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر عليَّ من العمل.

فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم، مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم: ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق، والحال، وتبدل الصفات».

ثم يبين لنا الإمام الفارق بين النظرية والتطبيق، وبين العلم

والعمل، وأن هذا الفارق كبير، ولذلك فالعلم وحده لا يعني شيئاً، وقد ضرب لنا الأمثلة ـ على طريقته في التفهيم ـ حتى نصل إلى وضوح كامل في الفرق بين العلم والعمل فقال:

«وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة، وحد الشبع، وأسبابهما، وشروطهما، وبين أن يكون صحيحاً وشبعان.

وبين أن يعرف حد السكر.. وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه، وما معه من السكر شيء.

والطبيب ـ في حالة المرض ـ يعرف حد الصحة، وأسبابها، وأدويتها، وهو فاقد الصحة.

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها، وأسبابها، وبين أن يكون حالك «الزهد» وعزوف النفس عن الدنيا».

ثم يحدثنا عن خلاصة ما توصل إليه بشأن المتصوفة، فقال:

«فعلمت يقيناً: أنهم أرباب «الأحوال» لا أصحاب «الأقوال» وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم، فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك»[1].

نتائج الدراسة

كان من نتائج دراسة الغزالي للتصوف، أنه نظر في نفسه، وتفحص ما هو فيه، فإذا به يرى غروراً كاذباً، وحياة غلبت عليها

(١) المنقذ من الضلال: ص ١٣٩ ـ ١٤١ بتقديم عبد الحليم محمود.

المظاهر، ففقدت روحها وحيويتها، وقاس نفسه بمقاييس الإسلام الحقة، فأشفق على نفسه..

لقد تبين له من نفسه:

- أنه كان جل اهتمامه بالجانب النظري من العلم دون الجانب العملي.

- وأن ما كان يعده عملاً يتقرب إلى الله تعالى به من التدريس والتعليم، كان فاقداً لشرط القبول، وهو النية.. وإذا به فجأة يجد نفسه بلا رصيد في مقياس الآخرة..

- وأنه يفتقد عنصراً مهماً في ميداني النظر والعمل وهو «الإخلاص».

فاكتشف من نفسه ما دفعه إلى الخوف، وإلى الحرص على الوقت فيما تبقى من عمره أن يصرف في مرضاة الله تعالى.

فيمّم وجهه شطر الصوفية:

- لأنها تقرن العلم بالعمل، بل لأن جلَّ اهتمامها بالعمل.

- لأنها تجمع بين الشريعة والحقيقة.

- لأنها تلبي متطلبات الروح وأشواقها.

فكان ذلك هو الدافع الذي جعله - بعد تردد، كما وصفنا في فصل سابق - يتنازل عما هو فيه من جاه ومكانة ليتجه إلى دمشق بعيداً عن مخالطة الناس، ليمارس التطبيق، ويجاهد نفسه في تصفيتها من الشوائب..

الفصل الثاني
تصوّف الغزالي

تصوف بغير شيخ:

بدأ الغزالي تصوفه في شهر رجب عام ٤٨٨ هـ - كما ذكر في المنقذ - حيث بدأ التجاذب في نفسه بين شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، فلم يزل يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، وتصدق رغبته بكرة، وتضعف عشية.. حتى صمم أخيراً على سلوك طريق الآخرة..

استمر هذا التردد قرابة ست أشهر - كما قال - ، وما طول هذه المدة إلا لأن الأمر الذي يقدم عليه هو الخطوة الأولى في هذه النقلة البعيدة المدى مادياً ونفسياً.

ولم يكن هناك من يستشيره في هذا الأمر، فيكون في مشورته مساعدة على البت فيه، إنما كان تصرفاً شخصياً، كان الباعث عليه وقوفه على علم التصوف، الذي أيقظ فيه، حساب نفسه، وتدبر أمره.

أما ما تذكره بعض المصادر، من أنه تتلمذ على الفارمدي، وأخذ منه استفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام

بوظائف العبادات، والإمعان في النوافل..»[1]، فذلك أمر فيه نظر. ذلك أن «الفارمدي» توفي عام ٤٧٧، والغزالي لم يبدأ مشوار التصوف إلا في أواخر عام ٤٨٨ أي بعد أكثر من عشر سنوات من وفاة الرجل.

ولعله كان مرشداً له في علم التصوف.. لا في التطبيق، ذلك أن عام ٤٧٧ وما قبله، كان الفترة التي سيطر فيها على الغزالي التطلع إلى الجاه والمنزلة.. الأمر الذي يتعارض مع مفهوم التصوف.

نستطيع القول إذن بأن الغزالي قطع طريق التصوف بمجاهدته الشخصية دون الاعتماد على شيخ، ويؤكد الغزالي هذا في كتاب (الإحياء) حيث ينفي وجود شيخ تتوفر فيه المواصفات اللازمة لهذه المهمة.

وليس هذا بمستغرب على الغزالي، فقد كان له من الهمة والعزم ما تصغر معه عظائم الأمور وقد رأينا من قبل كيف ذلت له الفلسفة وأخضعت له قيادها.

تصوف الغزالي

كانت حياة الغزالي حياة فكرية، ولكنها الآن أمام العمل والتطبيق، والعلم أيسر من العمل ـ كما يقول..

وكان العمل الأول هو توزيع المال الذي معه. قال: «وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدخر إلا قدر الكفاف، وقوت الأطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح لكونه وقفاً على

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١٠٩/٤.

المسلمين، فلم أر في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه»[1].

وهكذا تنازل عن الجاه، وتنازل عن المال، ثم بدأ رحلته، رحلة غيَّر فيها المكان الذي شهد فيه التكريم والتقدير إلى مكان حاول فيه البعد عن الناس وعدم التعريف بشخصه فيه.

كان عمله بعد ذلك: «العزلة والخلوة، والرياضة والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من علم الصوفية[2]، فكنت أعتكف مدة في مسجد «دمشق» أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي»[3].

ولقد استغرق هذا التطبيق للمعلومات وقتاً طويلاً، ولكنه خرج بعد ذلك، وقد تغيرت شخصيته تغيراً تاماً، ولم يكن هذا التغيير تكلفاً، ولكنه استطاع أن يصل به إلى أن أصبحت الصفات الجديدة التي سعى لها سجية.

وينقل لنا عبد الغافر الفارسي صورة من هذا التحول، فيقول: بأنه زاره مراراً وفي نفسه صورة الغزالي القديمة، التي كانت تنظر إلى الناس بعين الازدراء، والاستخفاف بهم كبراً وخيلاء، واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة، وطلب

(١) المنقذ من الضلال ص ١٤٤.
(٢) هذه الفقرة تؤكد ما ذهبت إليه في الفقرة السابقة، من أنه لم يكن له أستاذ في التصوف، وأنه إنما كان يطبق المعلومات التي حصلها بنفسه.
(٣) المنقذ من الضلال ص ١٤٤.

الجاه، والعلو في المنزلة. . فإذا به قد صار على الضد، وتصفى عن تلك الكدورات.

ويكشف لنا عبد الغافر تمام الصورة بقوله: وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف، متمنٍ بما صار إليه، فتحققت ـ بعد التروي والتنقيب ـ أن الأمر على خلاف المظنون، وأن الرجل أفاق بعد الجنون[١].

وينقل لنا صورة أخرى من عمله في النظامية بنيسابور بعد تصوفه فيقول:

«ونوى بإظهار ما اشتغل به: هداية السراة وإفادة القاصدين، دون الرجوع إلى ما انخلع عنه، وتحرر عن رقه، من: طلب الجاه، ومماراة الأقران، ومكابرة المعاندين. وكم قرع عصاه بالخلاف، والوقوع فيه، والطعن فيما يذره ويأتيه. . فما تأثر بالسعاية به والتشنيع عليه ولا اشتغل بجواب الطاعنين، ولا أظهر استيحاشاً بغميزة المخلطين»[٢].

فلم يعد همه الرد على الطاعنين عليه. وإنما همه إيصال علمه إلى الناس، فالوقت أصبح في حسابه أثمن من أن يضيع في توافه الأمور، وما هي غاية السعاة والطاعنين؟ إنها أمور تتعلق بالحياة الدنيا، وقد خلف الدنيا وراء ظهره.

والصورة التي كشفها لنا عبد الغافر، تؤكد تماماً الصورة التي حكاها الغزالي عن نفسه، وهو يروي لنا قصة عودته إلى التعليم في نظامية نيسابور، حيث قال:

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١٠٨/٤.   (٢) المرجع السابق ١٠٨/٤.

«وأنا أعلم: أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي، وأما الآن: فأدعو إلى العلم الذي به يترك الجاه، ويعرف به سقوط رتبة الجاه، هذا هو الآن نيتي وقصدي، وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني.

وأنا أبغي أن أصلح نفسي، وغيري، ولست أدري أأصل إلى مرادي، أم أخترم دون غرضي؟. .»[١].

وقد أخذ الغزالي نفسه بالبعد عن الصيت والذكر والسمعة، فهي التي تولد العجب في النفس والكبر، وهو من أخطر الآفات، ومما ذكر عنه بصدد ذلك:

ـ كان في زي الفقراء، فاتفق أن جلس يوماً في صحن الجامع الأموي، وجماعة من المفتين يتمشون في الصحن، وإذا بقروي أتاهم مستفتياً، ولم يردوا عليه جواباً، والغزالي يتأمل، فلما رأى الغزالي أنه لا أحد عنده جوابه، ويعز عليه عدم إرشاده، دعاه وأجابه، فأخذ القروي يهزأ به ويقول: إن كان المفتون ما أجابوني، وهذا فقير عامي يجيبني!! وأولئك المفتون ينظرونه، فلما فرغ من كلامه معه، دعوا القروي وسألوه: ما الذي حدثك به هذا العامي؟ فشرح لهم الحال، فجاؤوا إليه وتعرفوا به واحتاطوا به، وسألوه أن يعقد لهم مجلساً، فوعدهم إلى ثاني يوم، وسافر من ليلته[٢].

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٥٩.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١٠٤/٤.

ـ وصادف دخوله يوماً المدرسة الأمينة، فوجد المدرس يقول: قال الغزالي، وهو يدرس من كلامه، فخشي الغزالي على نفسه العجب، وفارق المكان[1].

مدة العزلة:

يقول الغزالي: ثم إني واظبت على العزلة والخلوة، قريباً من عشر سنين[2]. ونتساءل: لمَ كل هذه المدة؟ ومن أين كان ينفق على نفسه فيها؟

وقبل الجواب يحسن بنا أن نقرب الموضوع بمثال فنقول: إن علم التجويد يمكن دراسته وحفظه في ساعات معدودة، ولكن كم يحتاج تطبيقه إلى وقت؟ إن الذين درسوا علم التجويد يعرفون كم جلسوا في تصحيح البسملة..!! والعملية كلها ليست أكثر من تصحيح لحركة اللسان.

والعملية هنا تغيير صفات النفس من الكبر والعجب، والغضب والشهوة، وحب الذات..

ولعل الحادثة التالية التي ننقلها من كلام الغزالي تلقي لنا الضوء على الجواب، أو تكون تفسيراً للموضوع:

قال ابن السمعاني: قرأت في كتاب كتبه الغزالي إلى أبي حامد ابن أحمد بن سلامة بالموصل، فقال في خلال فصوله: أما الوعظ فلست أرى نفسي أهلاً له، لأن الوعظ «زكاة»، نصابه: «الاتعاظ»، فمن لا نصاب له، كيف يخرج الزكاة، وفاقد الثوب

(١) المصدر السابق ١٠٥/٤.
(٢) المنقذ من الضلال ص ١٥٣.

كيف يستر به غيره، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج، وقد أوحى الله إلى عيسى عليه السلام: عظ نفسك، فإن اتعظت فعظ الناس، وإلا فاستحي مني[1].

هكذا أضحى الغزالي الذي عرف بسرعة عبارته غير قادر على الوعظ لاختلاف الباعث عنده.. فالذي يتصدر لوعظ غيره ينبغي أن يكون للوعظ رصيد في سلوكه..

وأما السؤال الثاني فيجيب عليه ابن الجوزي رحمه الله حيث قال: وكان لا يأكل إلا من أجرة النسخ[2].

وفي هذه المدة ألف الغزالي أجلَّ كتبه (إحياء علوم الدين) وغيره من الكتب.

التصوف في نظر الغزالي:

ويعطينا الغزالي خلاصة عن التصوف حسب ما توصل إليه من خلال مجاهدته ورياضته بعد دراسته فيقول:

«.. علمت يقيناً أن الصوفية، هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة. وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق.. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة ـ على وجه الأرض ـ نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة: طهارتها ـ وهي أول شروطها ـ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى.

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١١٢/٤.
(٢) المنتظم، لابن الجوزي ١٦٩/٩.

ومفتاحها ـ الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة ـ استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وآخرها: الفناء بالكلية في الله»[1].

وإذا نظرنا إلى مفهوم التصوف ـ بشكل عام ـ عند الغزالي نجده مقارباً لمفهوم «الفقه» الذي طرحه في كتابه (الإحياء) حيث قال:

«ولقد كان اسم «الفقه» في العصر الأول مطلقاً على طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ويدلك عليه قوله عز وجل: ﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾[2].

وما يحصل بـه الإنذار والتخـويف، هو هـذا الفقه، دون تفريعات الطلاق والعتاق واللعان والسلم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب..

وقد سأل فرقد السبخي الحسن [البصري] عن شيء، فأجابه، فقال: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن رحمه الله: ثكلتك أمك فريقد، وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الورع، الكاف نفسه عن أعراض المسلمين، العفيف عن أموالهم، الناصح لجماعتهم.

(١) المنقذ من الضلال ص ١٤٥.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

ولم يقل في جميع ذلك: الحافظ لفروع الفتاوى، ولست أقـول: إن اسم الفقه لم يكن متنـاولاً للفتاوى في الأحكـام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول..»[1].

وبهذا المفهوم عن مصطلح «الفقه» نجد انحسار الفارق بينه وبين «التصوف».

(١) إحياء علوم الدين ٣٢/١.

الفصل الثالث

أخطاء المتصوفة وانحرافاتهم

تمهيد:

لو نظر الغزالي إلى التصوف من خلال المتصوفة في عصره، لكان له رأي آخر فيه، أو ربما لم يكن صوفياً في يوم من الأيام، ولكنه عرف التصوف نظرياً من طريق الدراسة والعلم، وعملياً من طريق التطبيق، الذي قام به دون شيخ أو مرشد، مقتفياً أثر القوم من أمثال الحارث المحاسبي والجنيد والشبلي..

نقول هذا، لأن أكثر نقاد الغزالي، كان جل نقدهم موجهاً إلى صوفيته، وإنما عرفوا الصوفية من خلال الزبد الطافي على الوجه. وغاب عنهم التعرف على ما ينفع الناس، وما ذاك إلا بسبب سطحية نظرتهم.

وغاب عنهم أن «في كل ميدان من الميادين أدعياء، نجدهم في الميدان الديني، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العلمي، ونجدهم كذلك في ميدان التصوف» كما يقول الدكتور عبد الحليم محمود[1].

(١) المنقذ من الضلال ص ٢٦٧.

«وليس من الإنصاف أن تُحْمَلَ على التصوف أوزارُ الأدعياء واللصقاء، الذين يندسون في صفوفه نفاقاً واحتيالاً، أو جهلاً وفضولاً، فإنه ما من نحلة في القديم والحديث سلمت من أوزار اللصقاء الذين ينتمون إليها من غير أهلها..» كما يقول عباس محمود العقاد[1].

لقد اكتشف الغزالي أثناء رحلته مع التصوف، أخطاء الجهلة، وانحرافات الأدعياء واللصقاء وعرفها معرفة كاملة عن قرب، ولئن عرف غيره ظواهر ذلك، فلقد عرف دقائقه وخفاياه.

والغزالي الذي ألجأ الفلسفة إلى خنادق الدفاع، والذي فضح الباطنية.. دفاعاً عن الإسلام، ما كان ليسكت عن انحرافات بعض المتصوفة، التي لا تقل خطراً عن خطر الفلسفة والباطنية.

ونحاول في هذا الفصل الوقوف على ما قام به الغزالي من بيان أخطاء وانحرافات بعض المتصوفة بشيء من الاختصار.

قلّة المتصوفين:

يرى الغزالي أن التصوف غير موجود، وذلك لعدم وجود من يسلك الطريق. وإذا وجد السالكون، فهم غير منضبطين مع ما يتطلبه الطريق من سلوك. يقول:

«والأمور الدينية كلها قد فسدت وضعفت، إلا التصوف، فإنه قد انمحق بالكلية وبطل. لأن العلوم لم تندرس بعد، والعالم - وإن كان عالم سوء - فإنما فساده في سيرته لا في علمه، فيبقى

(١) التفكير فريضة إسلامية. موضوع: التصوف. عباس محمود العقاد.

عالماً غير عامل بعلمه، والعمل غير العلم. وأما التصوف فهو عبارة عن تجرد القلب لله تعالى، واستحقار ما سوى الله، وحاصله يرجع إلى عمل القلب والجوارح، ومهما فسد العمل فات الأصل»[1].

ويوضح أن المشايخ الذين يقتدى بهم لا وجود لهم فيقول:

«وقد خلت البلاد الآن عن شيخ يقتدى به في علمه وسيرته»[2]

ويبين لنا سبب هذا الفقدان للمتصوفة فيقول:

«.. إن القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله.. ومرض القلب مما لا يعرفه صاحبه فلذلك يغفل عنه، وإن عرفه صعب عليه الصبر على مرارة دوائه، فإن دواءه مخالفة الشهوات، وهو نزع الروح، فإن وجد من نفسه قوة الصبر عليه، لم يجد طبيباً حاذقاً يعالجه، فإن الأطباء هم العلماء، وقد استولى عليهم المرض، فالطبيب المريض قلما يلتفت إلى علاجه، فلهذا صار الداء عضالاً، والمرض مزمناً، واندرس هذا العلم، وأنكر طب القلوب، وأنكر مرضها..»[3].

وإذا كان الشيخ المربي مفقوداً، والسالك غير موجود، حلَّ مكانهما المنتفعون واللصقاء، وهنا كان على الغزالي أن يبين الأخطاء ويظهر الانحرافات، حتى لا يساء فهم الدين.

---

(1) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٥٠.
(2) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٥٠.
(3) إحياء علوم الدين ٣/ ٦٣.

فساد المتصوفة:

ويعطينا الإمام الغزالي صورة عما آل إليه أمر المتصوفة من فساد فيقول:

«.. إن أكثر متصوفة هذه الأعصار ـ لما خلت بواطنهم عن لطائف الأفكار، ودقائق الأعمال، ولم يحصل لهم أنس بالله تعالى وبذكره في الخلوة، وكانوا بطالين غير محترفين ولا مشغولين ـ قد ألفوا البطالة، واستثقلوا العمل، واستوعروا طريق الكسب، واستلانوا جانب السؤال والكدية، واستطابوا الرباطات المبنية لهم في البلاد، واستسخروا الخدم المنتصبين للقيام بخدمة القوم، واستخفوا عقولهم وأديانهم: من حيث لم يكن قصدهم من الخدمة إلا الرياء والسمعة، وانتشار الصيت، واقتناص الأموال بطريق السؤال، تعللاً بكثرة الأتباع، فلم يكن لهم في الخانقاهات حكم نافذ.. فلبسوا المرقعات، واتخذوا في الخانقاهات متنزهات.. ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ويعتقدون أن كل سواد تمرة.. فهؤلاء بغضاء الله..»[1].

الغرور والجهل:

ويرى الإمام الغزالي أن الغرور قد هيمن على كثير من المتصوفة.

وقد عدَّ نماذج كثيرة من غرورهم ثم قال: «وأنواع الغرور في طريق السلوك إلى الله تعالى لا تحصى في مجلدات، ولا تستقصى..».

---

(1) إحياء علوم الدين ٢/ ٢٥٠.

ثم بين أن مصدر ذلك كله الجهل، وعدم سلوك الطريق بشكل صحيح، بحيث يكون بعد العلم، فالكثير منهم جهلة، ومع ذلك ادعوا المعرفة، بترديد كلمات هي طامات، ويظن أنه أوتي علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلاً عن العوام..

«وكل ذلك بناءً على أغاليط ووساوس، يخدعهم الشيطان بها، لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم، صالح للاقتداء به»[1].

الشطح والقول بالاتحاد:

وينكر الغزالي على بعض المتصوفة شطحاتهم، ويكرر هذا الإنكار في أماكن كثيرة من كتابه (الإحياء) ونلخص ما قاله في أول هذه الأماكن:

«وأما الشطح: فنعني به صنفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية:

الصنف الأول: الدعاوى الطويلة العريضة في العشق مع الله تعالى، والوصال المغني عن الأعمال الظاهرة، حتى ينتهي قوم إلى دعوى الاتحاد، وارتفاع الحجاب، والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب، فيقولون: قيل لنا كذا، وقلنا: كذا، ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج[2] الذي صلب لأجل

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٤ ـ ٤٠٧.
(٢) نشأ بواسط وقدم بغداد وخالط الصوفية، وكان يظهر مذهب الشيعة. أمر الخليفة العباسي المقتدر بسجنه ثم صلبه وقتله وذلك سنة ٣٠٩. =

إطلاقه كلمات من هذا الجنس، ويستشهدون بقوله: أنا الحق.. وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم، وأظهروا مثل هذه الدعاوى.

فإن هذا الكلام يستلذه الطبع، إذ فيه البطالة من الأعمال، مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال، فلا يعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم. ومهما أنكر عليهم ذلك، لم يعجزوا أن يقولوا: هذا إنكار مصدره العلم والجدال، والعلم حجاب، والجدل عمل النفس..

فهذا وأمثاله مما قد استطار في البلاد شرره، وعظم في العوام ضرره، حتى من نطق بشيء منه فقتله أفضل في دين الله من إحياء عشرة[1].

= قال ابن تيمية ـ وقد سئل عن بعض كلامه ـ: هذا الكلام ـ والله أعلم ـ هل هو صحيح عن الحلاج أم لا؟ فإن في الإسناد من لا أعرف حاله، وقد رأيت أشياء كثيرة منسوبة إلى الحلاج من مصنفات وكلمات ورسائل، وهي كذب عليه لا شك في ذلك، وإن كان في كثير من كلامه الثابت عنه فساد واضطراب، لكن حملوه أكثره، وصار كل من يريد أن يأتي بنوع من الشطح والطامات يعزوه إلى الحلاج.
[الاستقامة ١/١١٩].
وعلق ابن القيم على ما نسب إلى الحلاج.. بقوله: ونحو هذا من الشطحات التي نهايتها أن يغفر له ويعذر لسكره وعدم تمييزه في تلك الحال.
[طريق الهجرتين، لابن القيم ص ٢٣ ط دار المكتبة السلفية].
ويرى الدكتور عبد الحليم محمود: أن قضية الحلاج سياسية لا صلة لها بالدين [المنقذ من الضلال، بتقديمه ص ٣٠٣]. وكذلك عباس محمود العقاد [التفكير فريضة إسلامية. بحث التصوف].
(١) مع كل هذا الموقف الصارم من الإمام الغزالي تجاه القائلين بفكرة الاتحاد، =

الصنف الثاني: من الشطح كلمات غير مفهومة، لها ظواهر رائقة، وفيها عبارات هائلة، وليس وراءها طائل:

إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله، وتشويش في خياله لقلة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه، وهذا هو الأكثر.

وإما أن تكون مفهومة له، ولكنه لا يقدر على تفهيمها، وإيرادها بعبارة تدل على ضميره، لقلة ممارسته للعلم، وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة.

ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام، إلا أنه يشوش القلوب، ويدهش العقول، ويحير الأذهان.. وقد قال ﷺ «كلموا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله»[(١)] وهذا فيما يفهمه صاحبه، ولا يبلغه عقل المستمع، فكيف فيما لا يفهمه قائله..؟

وأما الطامات: فيدخلها ما ذكرناه من الشطح، وأمر آخر يخصها وهو: صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة، لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة، كدأب الباطنية في التأويلات.

= والذي لا يقاربه ولا يدانيه موقف آخر، يرى الدكتور محمد رشاد سالم في تعريفه بالغزالي أنه «مهد بآرائه في التصوف لمن جاء بعده من القائلين بالاتحاد ووحدة الوجود» [الاستقامة ١/٤٨ هامش/٤] علماً بأن الدكتور هو محقق كتاب (الاستقامة لابن تيمية) وقد رأى أن ابن تيمية عندما أراد أن يستشهد بكلام مما رُدَّ به على الشطح إنما استشهد بكلام الغزالي هذا. وقد صحح الدكتور النص في كثير من كلماته من كتاب الإحياء [الاستقامة ١/١١٩ ـ ١٢١]؟!!.

(١) رواه البخاري موقوفاً على علي رضي الله عنه، كما ذكره الحافظ العراقي.

فهذا ـ أيضاً ـ حرام، وضرره عظيم، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ، وسقط به منفعة كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ.

وهذا ـ أيضاً ـ من البدع الشائعة العظيمة الضرر، وإنما قصد أصحابها الإغراب، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له. وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة، بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم.

ومثال تأويل أهل الطامات: قول بعضهم في تأويل قوله تعالى: ﴿اذهب إلى فرعون إنه طغى﴾[(١)] إنه إشارة إلى قلبه، وقال: هو المراد بفرعون، وهو الطاغي على كل إنسان.

وفي قوله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»[(٢)] أراد به الاستغفار في الأسحار.. وأمثال ذلك، حتى يحرفون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره..

فكل ذلك حرام وضلالة، وإفساد للدين على الخلق، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن الحسن البصري، مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم..»[(٣)].

---

(١) سورة طه، الآية ٢٤.

(٢) متفق عليه من حديث أنس، كما قال الحافظ العراقي.

(٣) إحياء علوم الدين ١/٣٦ ـ ٣٧.

القول بسقوط التكليف:

ويحدثنا الغزالي عن انحراف آخر، لبعض الصوفية، لعله من أسوأ انحرافاتهم، المخرجة لهم من دائرة الإسلام.

ذلك أن بعضهم وقع في الإباحة، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام.. وهم فئات[1].

ومن هؤلاء طائفة ظنت أن المقصود من العبادات المجاهدة، حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة، فتركوا السعي والعبادة، وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف، وإنما التكاليف على عوام الخلق[2].

وحكم الغزالي على هذه الفئات بأنها مذاهب باطلة وضلالات هائلة..

وقد سئل من واحد من هؤلاء سؤالاً حول هذه القضية، فلم يكن جوابه إفادة الحكم وحسب، بل فصَّل وعلل، وذلك لأن الغاية هي العمل على هداية الخلق لا تنفيرهم. ويحسن بنا أن نورد جانباً من هذه الفتوى المطولة مع جانب من السؤال، يكون فيهما تلخيص للموضوع.

جاء في السؤال:

«ما قوله ـ متع الله المسلمين ببقائه.. ـ في قلب خصه الله بأصناف من الأنوار والعطايا.. ثم انكشف له: أن المقصود من

---

(1) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.

(2) إحياء علوم الدين ٣/٢٣٠.

التكاليف الشرعية، هو الفطام عما سوى الحق.. فإذا تم الفطام، وحصل المقصود.. فإنه لو اشتغل بوظائف الشرع، انقطع عن حفظ الباطن.

وهذا الرجل، لا ينزع يده من التكليف الظاهر.. لكن اعتقاده به تناقص وتقاصر، وهو يواظب عليها، وإن نقص اعتقاده فيها، فهو يعظمها..».

وجاء في الجواب:

«الجواب: وبالله التوفيق: ينبغي أن يتحقق المريد هنا، أن من ظن أن المقصود من التكاليف والتعبد بالفرائض، الفطام عما سوى الله، والتجرد له، فهو مصيب في ظنه أن ذلك مقصود، ومخطىء في ظنه أنه كل المقصود، ولا مقصود سواه.

بل لله في الفرائض التي استعبد بها الخلق أسرار سوى الفطام، تقصر بضاعة العقل عن دركها.

ومثل هذا الرجل المنخدع بهذا الظن، مثل رجل بنى له أبوه قصراً على رأس جبل، ووضع فيه شجرة من حشيش، طيب الرائحة، وأكد الوصية على ولده مرة بعد أخرى: أن لا يخلي هذا القصر عن هذا الحشيش طول عمره، وقال: إياك أن تسكن هذا القصر ساعة من ليل أو نهار، إلا وهذا الحشيش فيه.

فزرع الولد حول القصر أنواعاً من الرياحين، وطلب في البر والبحر أوتاداً من العود والعنبر والمسك، وجمع في قصره جميع ذلك مع شجرات كثيرة، من الرياحين الطيبة الرائحة.

فانغمرت رائحة الحشيش لما فاحت هذه الروائح.

فقال: لا شك أن والدي ما أوصاني بحفظ هذا الحشيش إلا لطيب رائحته، والآن قد استغنينا بهذه الرياحين عن رائحته، فلا فائدة فيه الآن، إلا أن يضيق على المكان، فرماه من القصر.

فلما خلا القصر من الحشيش، ظهر من بعض ثقب القصر حية هائلة، وضربته ضربة هائلة أشرف بها على الهلاك، فتنبه ـ حيث لم ينفعه التنبه ـ إلى أن الحشيش كان من خاصيته دفع هذه الحية المهلكة، وكان لأبيه بالوصية غرضان:

أحدهما: انتفاع الولد برائحته، وذلك قد أدركه الولد بعقله.

والثاني: اندفاع الحيات المهلكات برائحته، وذلك مما قصر عن دركه بصيرة الولد، فاغتر الولد بما عنده من العلم، وظن أنه لا سرَّ وراء معلومه ومعقوله، كما قال تعالى: ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾[1].

والمغرور من اغتر بعقله، فظن أن ما هو منتفٍ عن علمه، فهو منتفٍ في نفسه. ولقد عرف أهل الكمال: أن قلب الآدمي، كذلك القصر، وأنه معشش حيات، وعقارب مهلكات، وإنما رقيتها وقيدها بطريق خاصة: المكتوبات والمشروعات، بقوله سبحانه: ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كتب عليكم الصيام﴾[3]، فإذن في التكليف غرضان: أدرك ـ هذا المغرور ـ أحدهما، وغفل عن الآخر.

* * *

(١) سورة النجم، الآية ٣٠.
(٢) سورة النساء، الآية ١٠٣.
(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٣.

فإن أصر هذا المغرور على جهالته، وقال: من بلغ رتبة الكمال، كما بلغت أمن.. فيقال له: إنك مغرور في أمنك.. وتنبَّه على هذه المعرفة في ثلاثة أمور:

الأول: بداية حال «إبليس»، وأنه كيف وصف بأنه كان معلم الملائكة، ثم سقط عن درجة الكمال بمخالفة أمر واحد، اغتراراً بما عنده من العلم، وغفلته عن أسرار الله في الاستعباد، ولم يسقط عن درجته إلا بكياسته وفطنته، وتمسكه بمعقوله، في كونه خيراً من آدم عليه السلام.

فنبه الخلق بهذا الرمز، على أن البلاهة أدنى إلى الخلاص، من فطانة بتراء، وكياسة ناقصة.

الثاني: حال آدم عليه السلام، وأنه لم يخرج من الجنة إلا بركوبه نهياً واحداً...

الثالث: حال رسول الله ﷺ، فإن هذا المغرور لعله يقول: إنه لم تسلم له رتبة الكمال.

ثم إنه ﷺ لم يزل يلازم الحدود، ويواظب على المكتوبات إلى آخر أنفاسه، بل يزيد في فرائضه، وأوجب عليه التهجد، ولم يوجب على غيره. وقيل له: ﴿يا أيها المزمل، قم الليل إلا قليلاً، نصفه أو انقص منه قليلاً﴾[1].

أما ما ذكره: من أنه لو اشتغل بالتكاليف لشغله ذلك عن القربة التي نالها، والكمال الذي بلغه، فهو كذب صريح.. لأن التكاليف قسمان: أمر ونهي.

(١) سورة المزمل، الآيات ١ ـ ٣.

فأما المنهيات: مثل الزنا، والسرقة. . فترك ذلك كيف يشغل عن الكمال؟ وكيف يحجب عن القربة؟ والكمال كيف يكون موقوفاً على ركوب هذه القاذورات.

وأما المأمورات: فكالزكاة، والصوم، والصلاة:

فكيف تحجبه الزكاة، ولو أنفق جميع ماله، فقد دفع السوء عن نفسه؟

ولو صام جميع دهره، فهل يفوته بذلك إلا سلطنة الشهوة، فما الذي يفوت من الكمال بترك الأكل ضحوة النهار في شهر واحد هو رمضان؟!.

وأما الصلاة فتقسم إلى: أفعال وأذكار.

وأفعالها: قيام وركوع وسجود، ولا شك في أنه لا يخرج من القربة بالأفعال المعتادة، فإن لم يصلِّ، فيكون إما قائماً، أو مضطجعاً. وغير المعتاد هو السجود والركوع، وكيف يحجب عن القربة ما هو سبب القربة؟

ومهما ألقي في قلبه أن السجود سبب حرمانه عن القرب، كان ذلك أنموذجاً من حال «إبليس» حيث ألقي في نفسه أن السجود بحكم الأمر، سبب زوال قربته.

ولا ينبغي أن يتوهم الولي الخالص، أنه بعيد عن خداع «إبليس» ما دام في هذه الحياة. وما وجه الضرر في قوله: «الله أكبر» وفي «الحمد لله». . وكل ذلك مناجاة مع الله تعالى. .؟!

وأما قوله: إن التكليف وسيلة إلى الوصول إلى المقصود. . وقد وصل. .

فهذا ـ أيضاً ـ يفهم جوابه مما سبق، لأن جميع ذلك صادر عن ظنه: أن ما ليس حاصلاً في علمه، فليس حاصلاً في نفسه، وهو كعجوز ظنت أن ما تخلو عنه حجرتها، تخلو عنه خزانة الملك ومملكته، وأنه ليس في العالم سماء إلا سقف بيتها، ولا أرض إلا عرصة بيتها.

وهذا جهل عظيم، فإن جميع ما وصل إليه الأولياء بالإضافة إلى مقدورات الله تعالى، أقل من قطرة في بحر. .

وسيقال لكم يوم القيامة: معاشر أهل الإباحة: ﴿ما سلككم في سقر﴾، فتقولون: ﴿لم نك من المصلين﴾[1].

فعلاج هذا المغرور، الضعيف العقل، المريض القلب، أن يتأمل هذه الأمور، ويجوِّز الخطأ على نفسه، والسلام»[2].

بهذا الأسلوب يقيم الغزالي الحجة القاطعة على بطلان هذا المذهب الذي مصيره الخروج عن الإسلام. .

التفريق بين الحقيقة والشريعة:

رأينا في فقرة سابقة كيف انحرف بعض المتصوفة، بسبب اغترارهم بالشطحات والطامات، وقد أدى بهم هذا الغرور والانحراف إلى القول بأن للشريعة ظاهراً وباطناً. . فالفقهاء والمحدثون والعلماء يقفون عند الظاهر، وهو حجاب بينهم وبين الباطن الذي هو الحقيقة. . والمتصوف يتجاوز هذا الظاهر، فلا

(١) سورة المدثر، الآية ٤٢.

(٢) أورد هذا الفتوى المطولة ـ وقد اجتزأت بعضها ـ صاحب كتاب طبقات الشافعية الكبرى، الإمام السبكي ٤/١٣٦ ـ ١٤٣.

يقف عنده ـ ولذلك فهم لا يهتمون بالعلم ـ ويباشر الوصول إلى الحقيقة.

وقد أنكر الإمام الغزالي هذا القول أيما إنكار في أماكن كثيرة من كتبه ومنها (إحياء علوم الدين) ولعل قولهم هذا كان بتأثير الفكر الباطني الذي سبق الحديث عنه، بل هو المرجح.

ويؤكد الغزالي بأن القول بكون الباطن مناقضاً للظاهر فيه إبطال للشرع، وهو قول من قال: إن الحقيقة خلاف الشريعة، وهو كفر.

ويؤكد بأن الشريعة عبارةً عن الظاهر، والحقيقة عبارة عن الباطن، والباطن لا يخالف الظاهر ولا يناقضه، فهو هو، فيزول الانقسام.

وهكذا ليس هناك انقسام بل هما شيء واحد، ومن قال: إن الحقيقة تخالف الشريعة، أو الباطن يناقض الظاهر، فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان[١].

نكتفي بهذه النماذج عن الأخطاء، والانحرافات التي وقع بها بعض المتصوفة، والتي كشف الغزالي عنها الغطاء وبين زيفها وعوجها.

وهناك أخطاء أخرى كثيرة وقع بها بعضهم من الكبر والحسد.. وأمراض القلوب، لو ذهبنا نبين كيف كشفها الغزالي لطال بنا المقام ولخرج الموضوع عن المقصود.

(١) إحياء علوم الدين ١/١٠٠.

الفَصل الرابع

أثرُ الغزاليّ في التّصوّف

لقد كان أثر الغزالي واضحاً في كل مجال اشترك فيه، في الفقه، والأصول، وعلم الكلام...

وكان أثره عظيماً في رد الفلسفة، وفضح الباطنية..

ولكن أثره في التصوف، فاق كل آثاره الأخرى، وفي هذا الفصل نشير إلى بعض هذه الآثار:

تصحيح المسار:

رأينا كيف صار الغزالي فيلسوفاً، ثم فضح الفلسفة ونقضها، ولكنه عندما التزم التصوف لم يكن هدفه هدم التصوف، على الرغم مما كان يخالط التصوف من دخل ودجل، ومما علق به من خرافات وأوهام.. ومما تستر خلفه من لصقاء وأدعياء..

ذلك أن الغزالي تعرَّف على التصوف من منابعه الصافية، عند الجنيد، والحارث المحاسبي وأمثالهما.. ولذلك لم ير في الصور المعروضة أمامه من سلوك المتصوفة إلا انحرافاً، أو تشويهاً للتصوف الذي عرفه..

ولهذا لم يسكت على هذا التشويه، بل ذهب يبينه ويوضحه، ويبعد عن التصوف كل ما ليس منه، ليعيد له وضاءته وإشراقه وصفاءه، كما تعلمه ودرسه.

كان النقد الذي وجهه الغزالي للتصوف نقداً بنّاءً، غايته تصحيح الخطأ، والقضاء على الانحراف.

والغزالي عندما فعل ذلك، فعله وهو واحد ـ يومئذٍ ـ من مشايخ الصوفية، الذين خبروها وعاشوها، فكان نقدهم عن علم ومعرفة، وكان غير متهم في نقده من قبل الصوفية. ولذلك قال، فوجد من يستمع له وينصت، بل من يصحح وينفذ..

ولهذا اختلف الغزالي عن غيره من النقاد، الذين كان ـ في أغلب الأحيان ـ نقدهم صادراً عن ردود فعل، أو من جاهل بموضوع التصوف أصلاً.. فلم يجدوا من يعيرهم سمعه..

لقد استطاع الغزالي أن يصحح مسار التصوف، أو لنقل: إنه استطاع وضع معالم لطريق التصوف، ومقاييس له، تكشف الزيف، وتظهر الخطأ.. الأمر الذي ساعد على الإصلاح وسهَّل طريقه.

وقد بينا في الفصل السابق موقف الغزالي في نقده للتصوف ونشير في الفقرات التالية إلى ما يراه ضرورياً لسلوك الطريق.

التأكيد على العلم:

نظر الغزالي نظرة المتفحص إلى صوفية عصره فوجد أن سبب

الانحراف عندهم: هو الجهل والبعد عن العلم، واشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، كما قال[١].

فحث كل من أراد سلوك الطريق أن يبدأ بالعلم قبل اشتغاله بالمجاهدة، فهذا المسلك هو الذي يضمن عدم الانحراف، لأن من بدأ بالعلم سيكون لديه المقياس الذي يقيس به مسلكه، وهو الكتاب والسنة.

ويروي عن الجنيد الحادثة الآتية مؤيداً بها رأيه هذا:

«قال الجنيد ـ رحمه الله ـ: قال لي السري ـ شيخي ـ يوماً: إذا قمت من عندي، فمن تجالس؟ قلت: المحاسبي، فقال: نعم خذ من علمه وأدبه، ودع عنك تشقيقه الكلام، ورَدَّه على المتكلمين. ثم لما وليت سمعته يقول: جعلك الله صاحب حديث صوفياً، ولا جعلك صوفياً صاحب حديث: أشار إلى أن من حصَّل الحديث والعلم، ثم تصوف، أفلح. ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه»[٢].

فالذي يبدأ بالعلم أولاً يصبح بيده المقياس الصحيح. أما إذا بدأ بالتصوف فتصبح تعاليمه هي الأصل الذي يقيس عليه النصوص.. ومن هنا بدأ الخطأ.. وهذا ما تنبه له السري السقطي من وقت مبكر..

وتأكيداً من الغزالي على هذا المسلك، وحرصاً منه عليه، نجده في كتابه (الإحياء) يبدأ بكتاب العلم، وفقه العبادات.. ثم

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.
(٢) إحياء علوم الدين ١/٢٢.

فقه المعاملات.. وبعد ذلك ينتقل إلى الحديث عن طب القلوب.

وكتاب (الإحياء) هو الكتاب الذي وضعه لسالكي الطريق. وإذن فهو ينكر كل الإنكار أن تكون المجاهدة ورياضات النفس قبل العلم، لما يؤدي ذلك إلى الانحراف.

ويرى الغزالي أن نظرة العالم أدق وأصوب من نظرة الصوفي، ولنستمع إلى رأيه في ذلك:

«.. الفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع إلى أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبتهم في المسائل. والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه، ولا ينظر إلى حال نفسه، فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه، فإن الحق واحد أبداً..

والمقصود: أنه لو سئل منهم ـ من المتصوفة ـ مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة، قلما يتفق منها اثنان.. ونور العلم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء، ورفع الاختلاف..»[1].

وبهذا وضع الغزالي الصوفية على مبدأ الطريق الصحيح.

الفقه والتصوف:

ظل الخلاف والتنافر قائماً بين الفقهاء والمتصوفة، منذ بدأ الانحراف في التصوف، حين انضم إلى صفوفه الجهلة.

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٤٢ ـ ٢٤٣.

وقد كان المسلمون جميعاً على وفاق عندما كان مرجعهم إلى القرآن والسنة.. ولكن بعد أن أصبح للفقه مصطلحه الجديد، الذي هو التخصص في فروع الفتاوى.. بعيداً عن البحث في آفات النفوس.. كان طبيعياً أن يفرز هذا التخصص وجهاً آخر هو انصراف فريق من الناس إلى البحث في آفات النفوس فوجد الفريق الآخر الذي هو المتصوفة.

ثم غالى كل فريق منهم في مسلكه: فغالى الفقهاء في أعمال الظاهر، وغالى المتصوفة في أعمال الباطن.. وأصبحت نظرة كل فريق إلى الآخر نظرة انحراف عن الدين.

وأدى ذلك إلى انصراف بعض المتصوفة عن طريق العلم، بحجة أن النبي ﷺ كان أمياً..، وهي حجة ساقطة، ناتجة عن انحراف كبير في العقيدة.

وجاء الغزالي وأكد كثيراً أن طريق التصوف إنما يكون عن طريق العلم، فالمتصوف عالم تابعَ جهده بعد ذلك في المجاهدة والرياضة، فهو يشارك العالم في علمه، ويزيد عنه جهده في إصلاح نفسه ومجاهدتها.

وبهذا ضيق الشقة بين الفقه والتصوف، ذلك أنه جعل طريق الفريقين واحداً، وهو العلم، ولكن طريق الصوفية يمتد أطول من طريق العلم، فكلاهما يسيران معاً في القسم الأول من الطريق. فيقف الفقيه في محطة من محطاته، ويتابع الصوفي طريقه..

وبهذا أفلح الغزالي، وكان له الفضل الكبير في إزالة العداء بين الفقهاء والصوفية.

وكان لهذا أثره الكبير في المسلمين، حتى قال صاحب (ظهر الإسلام):

«وعلى الجملة: فيظهر لي أن الإسلام في العصور المتأخرة عن الغزالي، كان متأثراً بتعاليم الغزالي وكتبه»[1].

خطأ الإعراض عن الدنيا:

الزهد أصل كبير من أصول التصوف، نتج عنه: الإعراض عن الدنيا، وهو المسلك الذي يجاهد الصوفية نفوسهم من أجله، كمرحلة أولى من طريقهم.

ولكن بعضهم بالغ في هذا، بل وعلى حد تعبير الغزالي: أضلهم الشيطان في الإعراض عنها[2]. وقد ساق لنا نماذج من هذا الإعراض، وبين خطأها. ثم بين لنا السلوك الصحيح في هذا الموضوع بقوله:

«.. وإنما الناجي منها فرقة واحدة، وهي السالكة ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وهو: أن لا يترك الدنيا بالكلية، ولا يقمع الشهوات بالكلية. أما الدنيا: فيأخذ منها قدر الزاد. وأما الشهوات: فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل، ولا يتبع كل شهوة، ولا يترك كل شهوة، بل يتبع العدل.

ولا يترك كل شيء من الدنيا، ولا يطلب كل شيء من الدنيا،

---

(١) ظهر الإسلام، لأحمد أمين ٤/١٦٩.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٢٢٩.

بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا، ويحفظه على حد مقصوده:

- فيأخذ من القوت ما يقوي به البدن على العبادة.
- ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص، والحر والبرد.
- ومن الكسوة كذلك.

حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن، أقبل على الله تعالى بكنه همته، واشتغل بالذكر والفكر طول العمر.

وبقي ملازماً لسياسة الشهوات، ومراقباً لها، حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى، ولا يعلم ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية، وهم الصحابة..

وقد كانوا على النهج القصد، وعلى السبيل الواضح.. فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا، بل للدين، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً.

وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين، وهو أحب الأمور إلى الله تعالى.. والله أعلم»[1].

وبهذا الإقناع، وبهذه الحجج الواضحة، استطاع الغزالي أن يبين طريق الصواب في هذه القضية التي كانت وما زالت سبباً من أسباب انحراف المتصوفة.

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٣٠.

المكايد الخفية للنفس:

عاش الغزالي عشر سنوات في المجاهدة والرياضـات، فأتاح له ذلـك: الاطلاع على الـدقائق من سلوك النفوس في التـوائها وانحرافها ومكايدها. وكتاب (إحياء علوم الدين) مليء ببيان ذلك وذكره، مما لا نجده في كتاب آخر.

ونكتفي بذكر مثالين، نموذجاً لعشرات الأمثلة الأخرى.

● يقول الغزالي في صدد حديثه عن الإنسان عندما يـذم نفسه، ويصفها بركاكة الدين:

«.. ولكن ها هنا مكيدة للنفس بينة، ومخادعة، فليتفطن لها، وهو أنه قد يقول ذلك مظهراً أنه متشبه بالصالحين في ذمهم نفوسهم، واستحقارهم لها، ونظرهم إليها بعين المقت والازدراء، فتكون صورة الكلام: القدح والازدراء، وباطنه وروحه: هو عين المدح والإطراء.

فكم من ذام نفسه، وهو لها مادح بعين ذمه، فذم النفس في الخلوة مع النفس هو المحمود، وأما الذم في الملأ، فهو عين الرياء، إلا إذا أورده إيراداً يحصل للمستمع يقيناً بأنه مقترف للذنوب ومعترف بها. وذلك مما يمكن تفهيمه بقرائن الأحوال، ويمكن تلبيسه بقرائن الأحوال، والصادق بينه وبين الله تعالى، يعلم أن مخادعته لله عز وجل، أو مخادعته لنفسه محال، فلا يتعذر عليه الاحتراز عن أمثال ذلك»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٢٥١.

● ويقول الغزالي في صدد بيان خفايا الغيبة:

«وأخبث أنواع الغيبة: غيبة القراء المرائين، فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح، ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة، ويفهمون المقصود، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين: الغيبة والرياء.

وذلك مثل: أن يذكر عنده إنسان فيقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان، والتبذل في طلب الحطام.

أو يقول: نعوذ بالله من قلة الحياء، نسأل الله أن يعصمنا منها، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير، فيذكره بصيغة الدعاء.

وكذلك: قد يقدم مدح من يريد غيبته، فيقول: ما أحسن أحوال فلان، ما كان يقصر في العبادات، ولكن قد اعتراه فتور، وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر.

فيذكر نفسه، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك، ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه.

فيكـون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه، فيجمـع بين ثـلاث فواحش، وهو بجهـله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة.

ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل، إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم، فإنه يتبعهم ويحبط ـ بمكايده ـ عملهم، ويضحك عليهم، ويسخر منهم.

ومن ذلك: أن يذكر عيب إنسان، فلا يتنبه له بعض الحاضرين

فيقول: سبحان الله ما أعجب هذا!! حتى يصغىٰ إليه ويعلم ما يقول، فيذكر الله تعالى، ويستعمل «الاسم» آلة في تحقيق خبثه، وهو يمتن على الله عز وجل بذكره جهلاً منه وغروراً. . .

ومن ذلك: الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب، فإنه إنما يظهر التعجب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها، وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق، فيقول: عجبت، ما علمت أنه كذلك، ما عرفته إلى الآن إلا بالخير، وكنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب، والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب. .»[1].

ومن هذين المثالين يتبين لنا: أثر الغزالي في بيان عيوب النفس وإظهار ما خفي منها، مما كان له الأثر في التربية والسلوك.

والخلاصة: أنه مما لا شك فيه أن أثر الغزالي كان كبيراً على التصوف، إذ أراده تصوفاً سنياً، على طريقة الجنيد، وقد أفلح إلى حد كبير في الإصلاح في هذا الميدان. ولا يمكن تقدير ذلك إلا بالمقارنة بين ما كان عليه التصوف قبل الغزالي وما آل إليه بعده.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي في هذا الصدد:

«ومن عرف كيف كان التصوف قبل الغزالي، ثم كيف صار بعده، عرف فضل الغزالي على التصوف وأهله، وما ترك فيه من

(١) إحياء علوم الدين ١٤٥/٣.

أثر واضح، يشهد به المتخصصون في علم هذا الجانب من جوانب الثقافة والحياة الإسلامية.

وهذا ما اعترف به وقرره الذين عنوا بدراسة التصوف ورجاله وتاريخه، من المسلمين، ومن المستشرقين أيضاً. .»[1].

(١) الغزالي بين مادحيه وناقديه، للقرضاوي ص ١٣٦.

البَابُ الرَّابِعُ

كِتَابُ

إِحْيَاءِ عُلُومِ الدِّين

بعد حديثنا عن تصوف الغزالي، لا بد لنا من وقفة متأنية مع كتابه (إحياء علوم الدين) نعرِّف فيها بالكتاب، ونتحدث عن منزلته وموقف العلماء منه.

ثم نختم هذا الباب بفصل عن النقد الموجه إلى الإمام الغزالي.

الفَصلُ الأول

التَّعْرِيفُ بِكِتَابِ «الإِحْيَاء»

يعد كتاب (إحياء علوم الدين) الذي صنفه الإمام الغزالي في عزلته «من أجلّ كتبه» كما قال الإمام ابن تيمية[1]، أو «من أنفس الكتب وأجملها» كما قال ابن خلكان[2].

وفي هذا الفصل نحاول إعطاء صورة عامة عن هذا الكتاب.

وصف الكتاب:

يعد الكتاب موسوعة علمية في بابه، وقد أقامه مؤلفه على أربعة أقسام:

الربع الأول: ربع العبادات.

الربع الثاني: ربع العادات.

الربع الثالث: ربع المهلكات.

الربع الرابع: ربع المنجيات.

---

(١) الاستقامة ١/٨٠.

(٢) وفيات الأعيان ٤/٢١٧.

ثم قسم كل ربع من هذه الأرباع إلى عشرة كتب، وبهذا يكون مجموع كتب الكتاب أربعين كتاباً، يعد كل منها وافياً في الموضوع الذي وضع له، ولذا طبعت بعض هذه الكتب منفردة، مثل كتاب الغرور.

وكل كتاب من هذه الكتب، مقسم بدوره إلى أبواب وفصول..

وقد بدأ المؤلف كتابه بـ «كتاب العلم» لأنه غاية المهم، كما يقول المؤلف في المقدمة، وذلك ليكشف عن العلم الذي تعبد الله ـ على لسان رسوله ﷺ ـ الأعيان بطلبه، وليميز فيه العلم النافع من الضار.

ويتناول القسم الأول إضافة إلى العلم، بحث العقيدة، والعبادات، والأذكار والأوراد كما يتناول القسم الثاني آداب الأكل والنكاح، وأحكام الكسب، وآداب السفر.. أما الثالث: فيتناول شرح عجائب القلب من الآفات التي تنتابه كالغضب والكبر والحسد.. ويتناول الرابع المنجيات: كالتوبة، والخوف، والرجاء، والصدق والإخلاص. ومن هذا يتبين أن الكتاب قد تناول:

ـ أحكام العقيدة.

ـ أحكام العبادات..

ـ أحكام المعاملات.. والعادات.

ـ بيان ما ينبغي أن يتحلى به المسلم من الأخلاق المحمودة،

وما ينبغي أن يتجنبه من الأخلاق المذمومة وكيفية الوصول إلى ذلك.

ـ بيان وسيلة النجاة من توبة، وخوف ورجاء، وإخلاص، ومراقبة ومحاسبة وبهذا جاء الكتاب مستوفياً لما يحتاجه المسلم في حياته من علم.

الباعث على تأليف الكتاب:

نظر الغزالي فيما هو مطروح بين أيدي الناس تحت عنوان «العلم والفقه»، فوجد انحرافاً كبيراً في مفهوم هاتين الكلمتين، ساهم فيه العلماء المترسمون حتى: «لقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا:

ـ فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام، عند تهاوش الطغام.

ـ أو جدل يتدرع به طالب المباهاة إلى الغلبة والإفحام.

ـ أو سجع مزخرف، يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام.

إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام، وشبكة للحطام». وإزاء هذا الانحراف الكبير غاب العلم النافع.. قال الغزالي:

«فأما علم طريق الآخرة، وما درج عليه السلف الصالح، مما سماه الله سبحانه في كتابه: فقهاً، وحكمة، وعلماً، وضياءً، ونوراً، وهداية، ورشداً، فقد أصبح من بين الخلق مطوياً، وصار نسياً منسياً».

ولما كان الواجب على العالم أن يبين للأمة المسلمة الزيف، ويرشدها إلى الصواب، رأى الغزالي أن من واجبه أن يبين وجه الصواب في هذه القضية، وقد أوضح ذلك بقوله:

«ولما كان هذا ثلماً في الدين ملماً، وخطباً مدلهماً، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما، إحياءً لعلوم الدين، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين، وإيضاحاً لمباهي العلوم النافعة عند النبيين، والسلف الصالحين»[١].

الغاية المطلوبة:

واضح من كتاب الإحياء أن الغاية التي يسعى إليها المؤلف: هي الحث على قرن العلم بالعمل، إذ غاية العلم العمل، وتخليص العمل من الشوائب ليتحقق فيه «الإخلاص» الذي هو الغاية المطلوبة.

وقد ذكر ابن الجوزي: أن بعض أصحاب أبي حامد، سأله قبيل موته قائلاً: أوصني. فقال له: «عليك بالإخلاص» ولم يزل يكررها حتى الموت[٢].

طريقة الكتاب:

يسلك الإمام الغزالي في عرض الموضوعات التي تناولها في كتاب الإحياء طريقة واحدة، تدل على منهجه الفكري الذي التزم به، وهو المنهج الذي التزمه أهل السنة والجماعة في مختلف العصور.

(١) ما بين القوسين من مقدمة إحياء علوم الدين.
(٢) المنتظم، لابن الجوزي ٩/١٧٠.

فهو يقدم ذكر الآيات في الموضوع الذي يعرضه. ثم يذكر بعد ذلك ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة في ذلك. ثم يذكر ما ورد من الآثار عن الصحابة ومن بعدهم ـ من السلف الصالح ـ في الموضوع، وبعد ذلك يعرض الأفكار التي يريد تناولها في ترتيب وتنسيق قلما نجد ما يماثله في كتاب آخر. الأمر الذي يسهل الرجوع إلى الكتاب والتعامل معه.

الفَصْلُ الثاني
مَنزِلَةُ الإحيَاء

ظل كتب «إحياء علوم الدين» يحتل مكانة الصدارة في المكتبة الإسلامية، منذ ألفه الغزالي، وحتى يومنا هذا، على الرغم من الناقدين له.

فما من كتاب آخر حصل له ذلك الانتشار الواسع، والشهرة الكبيرة، حتى بات محفوظ الاسم من العالم والجاهل..

ولا شك بأن ذلك لم يكن من فراغ: فالكتاب له من الميزات ما أكسبه تلك المنزلة وبوأه تلك المكانة الرفيعة..

وفي هذا الفصل نذكر بعض هذه الميزات:

النظرة الشاملة:

عرض الغزالي الإسلام في كتابه على أنه وحدة غير قابلة للتجزيء. وكما أن الإنسان مكون من جسم وروح وعقل. وكذلك فإن الإسلام يتعامل مع الإنسان في جوانبه الثلاثة في تناسق عجيب.

وقد أوضح لنا الغزالي كيف توصل إلى هذه النظرة الكلية التي استوعبت أوامر الإسلام، فقال:

«إن علم المعاملة ينقسم إلى:

- علم ظاهر: أعني العلم بأعمال الجوارح.

- وإلى علم باطن: أعني العلم بأعمال القلوب.

والجاري على الجوارح: إما عادة، وإما عبادة. والوارد على القلوب - التي هي بحكم الاحتجاب عن الحواس -: إما محمود، وإما مذموم. فبالواجب: انقسم هذا العلم إلى شطرين: ظاهر وباطن، والشطر الظاهر المتعلق بالجوارح: انقسم إلى عادة وعبادة. والشطر الباطن المتعلق بأحوال القلب، وأخلاق النفس: انقسم إلى مذموم ومحمود فكان المجموع أربعة أقسام، ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام»[١].

وبهذا التقسيم استطاع الغزالي أن يستوعب إجمالاً أوامر الإسلام، وبهذا كان الكتاب فريداً في طريقة تصنيفه.

وهذا ما عبر عنه الشيخ عبد الغافر الفارسي - وهو معاصر للغزالي، ومن تلاميذ إمام الحرمين - بقوله: «إنه من تصانيفه المشهورة التي لم يسبق إليها»[٢].

وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «وكأن المصنف - الغزالي - حاول أن يكون هذا الكتاب - كمرشد ومرب - مغنياً عن غيره، قائماً مقام المكتبة الإسلامية، لذلك جعله يحتوي على العقائد،

---

(١) مقدمة إحياء علوم الدين.

(٢) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للعيدروس ص ٥. مطبوع في المجلد الخامس ملحقاً بالإحياء.

والفقه، وتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، والحصول على مرتبة الإحسان»[1].

وقد كان للغزالي ما أراد، فقد وجد كل مسلم حاجته في هذا الكتاب: من فقه عباداته ومعاملاته، وآداب عاداتـه، وما يلزم معرفته في مسائل الاعتقاد، إلى طرف من سلوكه ﷺ... وجانب من الأخلاق.. وحكايات عن السلف الصالح..

ولعل هذا الشمول في الكتاب، كان السبب في انتشاره..

تزكية النفس:

إن الغاية التي يهدف إليها الربعان: الثالث والرابع، من كتاب «الإحياء» هي تزكية النفس، هذا الجانب الذي لم يحظ من المؤلفين قبل الغزالي إلا باليسير.

فلما جاء الغزالي، بحث عن الأخلاق ودوافعها، ومنشأها.. بحثاً دقيقاً، حيث تكلم عن أمراض القلب وأسبابها، وعلاجها، وكيفيه المعالجة.

قال الأستاذ الندوي:

«وقد استحق الغزالي ببحوثه العميقة في الأخلاق، وبتأليفه العظيم «إحياء علوم الدين» أن يوضـع في الصف الأول من علماء الأخلاق، وأن يكون موضع دراسة وعناية من الباحثين في علم الأخلاق، وعلم النفس والمؤرخين لهذا الموضوع»[2].

---

(1) كتاب (رجال الفكر والدعوة) ص ٢٤٥.
(2) المصدر السابق ص ٢٤٤.

وقد قدمت نموذجين من معالجاته الدقيقة لانحرافات النفوس في الفصل الأخير من الباب السابق، والأمثلة كثيرة، ولكنا نحيل عليهما رغبة في عدم الإطالة. وكانت هذه ميزة أخرى للكتاب.

العرض السليم للموضوع:

شرحنا في الفصل السابق الطريقة التي مشى عليها الغزالي في عرض موضوعات الكتاب، ونضيف إلى ذلك أن الغزالي كان يتمتع بأسلوب مشرق، وعبارة سهلة، تصل إلى النفس بسهولة ويسر، على الرغم من صعوبة بعض الموضوعات التي تناولها.

وقد استطاع بواسطة الأمثلة أن يتغلب على الحواجز الفكرية التي قد تكون عقبة دون الفهم، وقد أوتي قدرة عظيمة على استجلاب الأمثلة التي توصله إلى الغرض، الذي هو الوصول إلى ذهن القارىء وعاطفته.

كما كان يمتلك القدرة على الانتقال من المعنى النفسي إلى الصورة الحسية.. الأمر الذي مكنه من تقريب المعاني البعيدة وتجسيدها.

وبهذا أتيح لغير المثقفين والمتعلمين أن يتعاملوا مع الكتاب، وأن يفهموا عنه ما يريد فكانت تلك ميزة أخرى ساعدت على وصول صوت المؤلف إلى الكثير من الأسماع.. وقد كان الغزالي واعياً لذلك تماماً، وقد بينه بقوله:

«ومقصود مثل هذا الكتاب ـ كتاب شرح عجائب القلب من كتاب إحياء علوم الدين ـ أن ينتفع به الأقوياء، والفحول من

العلماء، ولكنا نجتهد في تفهيم الضعفاء بضرب الأمثلة، ليقرب ذلك من أفهامهم»[1].

ونذكر مثالاً على ذلك مما ضربه من الأمثلة للقلب مع جنوده الباطنة، قال:

«اعلم أن البدن كالمدينة، والعقل ـ أعني المدرك من الإنسان ـ كملك مدبر لها، وقواه المدركة من الحواس الظاهرة والباطنة كجنوده وأعوانه، وأعضاءَه كرعيته، والنفس الأمارة بالسوء، التي هي الشهوة والغضب، كعدوّ ينازعه في مملكته، ويسعى في إهلاك رعيته. فصار بدنه كرباط وثغر، ونفسه كمقيم فيه مرابط، فإن هو جاهد عدوه وهزمه، وقهره على ما يجب حُمِدَ أثره. وإن ضيع ثغره وأهمل رعيته ذم أثره»[2].

وفي مثال آخر يتحدث عن مهمة الشيخ في تأديب طلابه فيقوله:

«فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطبب نفوس المريدين، ويعالج قلوب المسترشدين، ينبغي أن لا يهجم عليهم بالرياضة والتكاليف.. ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد، قتل أكثرهم، فكذلك الشيخ: لو أشار على المريدين بنمط واحد من الرياضة أهلكهم، وأمات قلوبهم. بل ينبغي أن ينظر في مرض المريد، وفي حاله، وسنه، ومزاجه، وما تحتمله بنيته من الرياضة، ويبني على ذلك

---

(١) إحياء علوم الدين ٦/٣.
(٢) إحياء علوم الدين ٧/٣.

رياضته»[1]. وبهذه الطريقة في العرض كسب الكتاب ميزة أخرى.

حرارة الكلمة:

أجمع قراء الإمام الغزالي ـ من محبيه وناقديه ـ أنه تمتع بقدرة الهيمنة على قارئه، وعلى التأثير فيه.

وتلك قضية أخرى غير حسن الديباجة وإشراقة الأسلوب.

إنها حيوية الكلمة وحرارتها، وقديماً قالوا: ليست النائحة كالثكلى، فالغزالي في كتابه الإحياء وما شابهه لم يكتب من أجل الثقافة، ولا من أجل الشهرة وكسب الصيت، وإنما كان دافعه العمل على رد المنحرفين إلى دائرة الصواب، والدفاع عن الدين.. والأمر بالمعروف.. هذه المسؤولية التي يرى أنه مسؤول عنها أمام الله تعالى.. وقد رأى أن الخرق قد اتسع على الراقع، ولكن ذلك لم يوصله إلى دائرة اليأس. بل شحذ من همته، وشد من عزمه، وكأني به وقد رفع صوته بكل ما أوتي من قوة وهو ينادي محذراً الناس: النار، النار..

لم يكن الغزالي يحذر غيره، ويظن أنه بمأمن، كما هو شأن كثير من العلماء، بل كان يعكس الخوف الذي سيطر على نفسه من الله تعالى.. ومن التقصير بأداء الواجبات المترتبة عليه.. فكانت كلماته صورة حية لها الفاعلية والتأثير..

---

(١) إحياء علوم الدين ٦١/٣.

وهذا ما جعل له هذه المكانة في الأمة الإسلامية. يقول الدكتور القرضاوي:

«لقد كان قبل الغزالي عمالقة كبار من أئمة الإسلام، مثل شيخه إمام الحرمين، وشيخ شيخه القاضي الباقلاني.. وكلهم أئمة هدى، ومصابيح دجى، ولكن تأثيرهم كان في محيط الخواص، لم يتعدهم إلى محيط الأمة العام، الذي أثر فيه الغزالي خريج مدرستهم وناشر علمهم وأفكارهم.

ترى ما السر وراء هذا التأثير الذي امتد عرضاً فشمل أقطار الإسلام، وطولاً فشمل القرون والأعصار إلى اليوم، وعمقاً فأثر في العقائد والأفكار والأخلاق والأعمال؟

قد يقال: إن ذلك يرجع إلى قوة بيان الغزالي.. وقد يقال: إن ذلك يرجع إلى عقل الغزالي.. قد يقال هذا، وقد يقال أكثر منه، وكله له نصيب من الصحة.

بيد أن وراء هذا الإقبال من الأمة على الغزالي وآثاره ـ بالإضافة إلى ما ذكر ـ سراً آخر، يتمثل ـ فيما أرى ـ في إخلاصه وتجرده لله، وفنائه عن حظوظ نفسه في مرضاة ربه. والكلام إذا صدر من القلب نفذ إلى القلوب، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الآذان، وليست النائحة كالثكلى»[1].

(١) الغزالي بين مادحيه ناقديه للقرضاوي ١٠٣.

الفَصْلُ الثالث

مَوْقِفُ العُلَمَاءِ مِنَ «الإحيَاء»

انقسم العلماء في موقفهم من كتاب (إحياء علوم الدين) إلى فريقين:

ـ الأول: ويرى في الكتاب إحياءً لعلوم الدين، فهو اسم على مسمى..

ـ الثاني: وله رأي آخر، وهؤلاء اختلفت مواقفهم بحسب الباعث الذي ينقدون الكتاب على أساسه:

ونذكر في هذا الفصل آراء الفريق الأول، ونذكر آراء الفريق الثاني في الفصل التالي.

* * *

قال الحافظ الفقيه أبو الفضل العراقي مخرج أحاديث الإحياء:

«إنه من أجل كتب الإسلام في معرفة الحلال والحرام، جمع فيه بين ظواهر الأحكام، ونزع إلى سرائر دَقَّتْ عن الأفهام، لم يقتصر فيه على مجرد الفروع والمسائل، ولم يتبحر في اللجة بحيث يتعذر الرجوع إلى الساحل، بل مزج فيه علمي الظاهر

والباطن، ومزج معانيها في أحسن المواطن، وسبك فيه نفائس اللفظ وضبطه، وسلك فيه من النمط أوسطه، مقتدياً بقول علي كرم الله وجهه: خير هذه الأمة النمط الأوسط يلحق به التالي، ويرجع إليهم الغالي»[1].

وهذه الشهادة من الحافظ العراقي لها قيمتها، فهو الذي خرج أحاديث الكتاب، وتعرف عليه معرفة تفصيلية.

وقال ابن السبكي: «وهو من الكتب التي ينبغي الاعتناء بها، وإشاعتها، ليهتدي بها كثير من الخلق، وقلما ينظر فيه ناظر، إلا وتيقظ له في الحال.

وقال أيضاً: ولو لم يكن للناس في الكتب التي صنفها أهل العلم إلا الإحياء لكفاهم»[2]

وقال أبو العباس القباب (٧٧٩ هـ) وقد سئل عن كتاب الإحياء:

السؤال: سئل القباب عن جماعة من الطلبة يطعنون في كتاب الشيخ الإمام أبي حامد الغزالي، المشهور بـ «الإحياء»، ويشددون في الإنكار على من أراد قراءته، وبالغ بعضهم في ذلك إلى أن قال: ليس ذلك بإحياء علوم الدين، وإنما هو إماتة علوم الدين.

---

(١) تعريف الأحياء بفضائل الإحياء، للعيدروس ص ٥ طبع ملحقاً بكتاب الإحياء ج ٥.
(٢) شرح الإحياء للزبيدي ١/٢٧.

فأجاب: «إنكار المنكر لقراءة الأحياء، وقوله: إنه إماتة علوم الدين لا إحياؤه، فهذا قول مُنكِر، وكلام مبتدِع غرٍ جاهل بحق الرجل وبحق كتابه.

وأبو حامد من أئمة المسلمين، قال فيه المازري: إنه لا يشق غباره في الفقه، وفي أصول الفقه، إنما انتقد عليه بعض الفقهاء مسائل مما يتعلق بشرح عجائب القلب، وما يتعلق بذلك وما أشبه ذلك، أجاب عنه آخرون.

ولا شك أن ترك النظر في المسائل لمن لا رسوخ له في العلم واجب، وما عدا ذلك من الفقه، والتكلم في خبائث القلب من الكبر والعجب والرياء والحسد، فقراءته واجبة، وكذلك جميع الآداب من الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والأوراد، وآداب الصحبة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك مما لا يتعلق بالتعليل في قياس المشاهد على الغائب، فلا يعدل بكلامه شيء من كلام غيره.

وإذا كان المنكِر لقراءته ممن لا يمارس كلام العلماء فإنه يزجر عن ذلك»[1].

وقال أيضاً: «وما زلت أتمنى أن لو قيض الله تعالى رجالاً لهم حظ من العلوم وعناية بهذه الطريقة إلى تلخيص كتاب «الإحياء» فإنه كتاب جمع من العلوم المحتاج إليها ما لا يوجد في غيره، لا سيما: الدواخل والشواغل المفسدة للمعاملات، ومعرفة عيوب

---

(١) المعيار المعرب، للونشريسي ١٢/١٨٤.

النفس، وكيفية مداواتها، فهو فيها غاية المطلوب»[1].

وقال ابن كثير: «وصنف في هذه المدة كتابه «إحياء علوم الدين» وهو كتاب عجيب، يشتمل على علوم كثيرة من الشرعيات، وممزوج بأشياء لطيفة من التصوف وأعمال القلوب، لكن فيه أحاديث كثيرة غرائب، ومنكرات، وموضوعات، كما يوجد في غيره من كتب الفروع التي يستدل بها على الحلال والحرام. فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب، أسهل أمراً من غيره»[2].

وقال الزبيدي شارح الإحياء: «وأنا لا أعرف له نظيراً في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر، والفكر والأثر»[3].

وقال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر: «وإذا وجد العلماء في كتاب الإحياء مآخذ معدودة، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل، وكفى كتاب الإحياء فضلاً وسمو منزلة: أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد، وأن يظفر منه طلاب العلم، وعشاق الفضيلة، بما لا يظفرون به في كتاب غيره»[4].

وقال الدكتور يوسف القرضاوي: «وكم أتمنى أن يختصر من الكتاب - أعني: الإحياء - «منتقى» يبقي على روحه وحرارته،

(١) المعيار المعرب، للونشريسي ١٢٢/١١.
(٢) البداية والنهاية ١٧٤/١٢.
(٣) شرح الإحياء للزبيدي ٢٧/١.
(٤) المنقذ من الضلال. بتقديم عبد الحليم محمود ص ٦٣.

كما يبقي على فوائده العلمية والتربوية - وهي كثيرة وفيرة - ويحذف التجاوزات والمبالغات، والأحاديث الضعيفة، أو الشديدة الضعف على الأقل. وبهذا تقدم للثقافة الإسلامية خدمة جليلة»[1].

نكتفي بهذه النماذج من آراء العلماء، وقد ضربت صفحاً عن ذكر الآراء التي غلبت عليها المبالغة، وفيما ذكر كفاية.

(١) الغزالي بين مادحيه وقادحيه ص ١٥٨.

الفصل الرابع

نقد كتاب «الإحياء»

الناقدون:

إن الذين أثنوا على كتاب الإحياء ـ ومنهم المغالون ـ كانوا من العلماء والأئمة، ولعل الذين غالوا في مدحه نظروا إلى ميزات الكتاب، التي ذكرنا بعضها في فصل سابق، فوجدوها لا يشاركه بها غيره، فانطلقت ألسنتهم بالمدح، ولا يعرف الفضل إلا ذووه.

ولكنا ونحن نتحدث عن نقّاد الكتاب، نجد خليطاً عجيباً، منهم الأئمة الكبار الذين كان نقدهم قياماً بواجب المسؤولية أمام الله، وكان نقدهم دقيقاً، وَضَعَ النقاط على الحروف، كما يقال، وكانت لغتهم مهذبة الألفاظ، كما هو شأن العلماء الذين يعرفون قدر العلم ومكانته..

ومنهم غير ذلك، وبعض هؤلاء: منهم من قرأ كتاب الإحياء، ومنهم من لم يقرأه[1]؟! ومنهم من فهم بعضه، ومنهم من لم يفهمه..

(١) من هؤلاء الإمام محمد بن علي المازري الصقلي (٥٣٦ هـ) وقد أدلى بدلوه في نقد الكتاب فقال: «وكاتبني أهل المشرق يسألونني، ولم يتقدم لي قراءة هذا الكتاب سوى نبذ منه..» ثم استمر في كلامه؟

وحتى لا يفهم قولي هذا على أنه مغالاة، أو تجن على الواقع، فإني مضطر إلى بيان ذلك مع شيء من التفصيل:

١ ـ إن الإمام الغزالي وضع كتاب الإحياء، ليكون ـ في جملة ما قصد إليه ـ منهجاً لسالكي طريق التصوف، يقوِّمون سلوكهم على أساسه، فيكون ابتداء طريقهم بالعلم ـ وهو الأمر الذي ينقص المتصوفة ـ ثم يكون سلوكهم لطريق التصوف بعيداً عن انحرافات المتصوفة التي انتقدها الغزالي انتقاداً مراً، وبين بُعدَها عن الإسلام بأساليب مختلفة، خلال صفحات كتابه. فقد كانت غايته ضبط سلوك المتصوفة مع تعاليم الإسلام المنبعثة من الكتاب والسنة.

وهذا الأمر جهله كثير من نقاد الكتاب، الذين قلدوا في نقدهم غيرهم، دون الرجوع إلى الكتاب نفسه، وبعضهم ممن يتقززون عادة من كل شيء يسمى تصوفاً[1]، ولذلك فلا قدرة لهم مع حالتهم النفسية تلك على قراءة الكتاب، ولو قرؤوه لم يفلحوا في إنصافه، لأن عامل الاعتدال غير متوفر لهم. الأمر الذي أوضحه في الفقرة التالية:

٢ ـ قال سيد قطب ـ رحمه الله ـ في كتابه «في التاريخ فكرة ومنهاج»:

«.. ولكي يفهم الإنسان الحادثة ويفسرها.. ينبغي أن يكون لديه الاستعداد لإدراك مقومات النفس البشرية جميعها: روحية

(١) أذكر مرة أن بعضهم رأى بيدي كتاب «طريق الهجرتين» للإمام ابن القيم، فرأى في مقدمته قوله: «وقد قال شيخ الطريقة، وإمام الطائفة الجنيد بن محمد قدس الله روحه..» فاستغرب أيما استغراب أن يصدر هذا عن الإمام ابن القيم!.

وفكرية وحيوية، ومقومات الحياة البشرية جميعها: معنوية ومادية، وأن يفتح روحه وفكره وحسَّه للحادثة، ويستجيب لوقوعها في مداركه، ولا يرفض شيئاً من استجاباته لها إلا بعد تمحيص ونقد.

فأما إذا كان يتلقاها بادىء ذي بدء، وهو معطل الروح أو الفكر، أو الحس ـ عن عمد أو غير عمد ـ فإن هذا التعطيل المتعمد، أو غير المتعمد، يحرمه استجابة معينة للحادثة التاريخية، أي يحرمه عنصراً من عناصر إدراكها وفهمها على الوجه الكامل، ومن ثم يجعل تفسيره لها مخطئاً أو ناقصاً.

هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية، ذلك أن هناك عنصراً ينقص الطبيعة الغربية ـ بصفة عامة ـ لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص.. عنصر الروحية الغيبية..

وقد ذكرت عنصر الروحية الغيبية على وجه التخصيص، لأنه أظهر ما يبدو فيه هذا النقص في الطبيعة الغربية..».

وبهذه الطريقة العلمية الدقيقة يبين فشل الغربيين في فهم التاريخ الإسلامي، وبالتالي فساد تفسيرهم له..

وما ذكره سيد ـ رحمه الله ـ ينطبق على موضوعنا هنا، ذلك أن بعض الذين انتقدوا الكتاب، قد جف لديهم الجانب الروحي، وهم الذين وصفهم الغزالي بالعلماء المترسمين..، ففقدوا عنصراً مهماً في ذاتهم يحرمهم من فهم الكتاب، وبالتالي من صدق النقد.

ولا يغضب من ينتصر لهؤلاء من هذا القول، وهذا القياس، فإن الحديث الصحيح يؤيد ذلك:

قالت عائشة رضي الله عنها: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان؟ فما نقبلهم، فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!»[١] وفي رواية: «وما أملك..». فالعواطف في رقتها وسموها منح من الله تعالى..

٣ ـ وهذا ما يوصلنا إلى الفكرة الثالثة في هذه الكلمة:

وهذه الفكرة يسجلها ابن القيم ـ رحمه الله ـ، وهي أن من أراد الفهم في هذا الموضوع ينبغي أن يمتلك شفافية في النفس.. فيقول:

«ومن كثف ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا، فليضرب عنه صفحاً إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئاً فدعه
وجاوزه إلى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة..»[٢]. قال هذا في صدد حديثه عن التعبد لله بخالص المحبة..

ومن خلال ما سبق يتبين أن بعضاً من نقاد الكتاب لم يكونوا أهلاً لفهم بعض الكتاب، ولذا جاء نقدهم فجاً أو مجانباً

(١) رواه البخاري برقم ٥٩٩٨.
(٢) طريق الهجرتين ص ٢٣.

للصواب.. وهؤلاء لا يهمنا أن نقف عندهم.

ونحاول في هذا الفصل تصنيف ما انتقد به كتاب الإحياء، فنقول:

- هناك قضايا انتقد بها وهي ناتجة عن اجتهاد، ومن المعلوم أن الاجتهاد لا ينقد باجتهاد مثله.

- أما القضايا التي يمكن تسجيلها فيما انتقد به الإحياء فهي:

١ - الأحاديث الضعيفة والموضوعة الواردة فيه.

٢ - نقل الأفكار دون عزوها إلى أصحابها.

٣ - ذكر أغاليط الصوفية وترهاتهم.

وقبل الانتقال إلى الحديث عن هذه الجوانب يحسن بنا أن ننبه إلى أن كتاب «طبقات الشافعية الكبرى» للسبكي، قد جمع ما انتقد به الإمام الغزالي وأجاب عليه[1]، وفعل مثل ذلك شارح الإحياء الزبيدي في الجزء الأول من كتابه، فيحسن الرجوع إليهما لمن رغب في معرفة تفصيلية حول ذلك.

أحاديث الإحياء:

كثر استشهاد الإمام الغزالي بالأحاديث الضعيفة والموضوعة في كتابه الإحياء، فكان ذلك مثار إجماع من النقاد، الذين اختلفت عباراتهم ليناً وشدة..، وكان من أشدهم الإمام ابن الجوزي. وكل قارىء للإحياء يتمنى لو أن الغزالي لم يفعل ذلك.

ولكن الغزالي صاحب الثقافة التي تعددت جوانبها، من فقه،

(١) طبقات الشافعية الكبرى ١٠١/٤ - ١٠٥.

وأصول، وعلم كلام، ومنطق وفلسفة وتصوف وأخلاق، لم يكن له خبرة في علم الحديث.

ويرجع الدكتور القرضاوي ذلك، إلى المدرسة التي نشأ فيها الغزالي - مدرسة إمام الحرمين - التي لم يكن لها اهتمام بذلك[1].

يضاف إلى ذلك أن طبيعة الحياة العلمية التي عاشها الإمام الغزالي، حياة العلماء المترسمين، كان جل اهتمامها منصباً على القضايا الجدلية، التي يظهر العالم بها على غيره في المناقشات..

وهكذا تدرجت حياة الغزالي بعيدة عن علم الحديث، فلم يتح له أن يأخذ بنصيبه منه.

وقد اعترف الغزالي أن بضاعته في الحديث مزجاة. وذكر ابن السمعاني: أنه لما عاد إلى وطنه كانت خاتمة أمره الإقبال على طلب الحديث ومجالسة أهله، وقراءته ونسخه، واستدعى الحافظ أبا الفتيان عمر بن أبي الحسن الرؤاسي إلى طوس وأكرمه، واغتنم أيامه وسمع منه الصحيحين[2].

وقد اعتذر عنه بعضهم: بأنه أخذ هذه الأحاديث من كتب الصوفية، وهم لا خبرة لهم بها، والمعروف عنهم التساهل في هذا الأمر.

وقد قام الحافظ العراقي بتخريج أحاديث الإحياء وبين وضعها. كما قام صاحب طبقات الشافعية الكبرى بجمع

(١) الغزالي بين مادحيه وقادحيه ص ١٥٠.
(٢) شرح الإحياء للزبيدي ١٩/١.

الأحاديث التي لم يجد لها إسناداً مرتَّبة حسب كتب الإحياء[1].

والحق يقال: إن أصحاب كتب الرقائق والمواعظ تساهلوا في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة. فالغزالي هنا لم يبتدع شيئاً لم يكن. وقد رأينا اعتذار ابن كثير عنه بقوله: «فيه أحاديث غرائب ومنكرات وموضوعات، كما يوجد في غيره من كتب الفروع، التي يستدل بها على الحلال والحرام، فالكتاب الموضوع للرقائق والترغيب والترهيب أسهل أمراً من غيره».

«والعجيب أن ابن الجوزي ـ نفسه ـ لم يسلم مما عاب به الغزالي. . فحشا كتبه الوعظية بما لا يصح ولا يثبت، مثل كتابه (ذم الهوى) وغلبت فيه طبيعة الواعظ على طبيعة الناقد الحافظ، صاحب كتب (الموضوعات) و (العلل المتناهية) وغيرها.

ومن قبل لاحظ ذلك العلامة المؤرخ (ابن الأثير) وسجله على ابن الجوزي»[2].

كما أنه اختصر كتاب الإحياء في كتاب سماه (منهاج القاصدين) ثم اختصر المنهاج ابن قدامة المقدسي، وفيه ما فيه من الأحاديث الضعيفة.

وقد وقع في الاستشهاد بالأحاديث الضعيفة أئمة كبار مثل الإمام ابن القيم، رحمه الله، ففي كتابه (إغاثة اللهفان) على سبيل المثال استشهد بأحاديث ضعيفة بل إن بعضها موضوع[3].

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ٤/١٤٥ ـ ١٨٢.
(٢) الغزالي بين مادحيه وقادحيه ص ١٢٥.
(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم ١/٣٦٥ ـ ٤٠٢ وفي الموضوع ص ٣٧٧ و ٤٠٠ تحقيق محمد عفيفي ط: المكتب الإسلامي.

وإذا كان الغزالي يعذر لعدم معرفته بالحديث، فإن الإمامين: ابن الجوزي، وابن القيم لا تفوتهما معرفة درجة الحديث؟!.

ولهذا فالمنصفون من العلماء رأوا أن الأحاديث الضعيفة في الإحياء تؤثر على قيمته ولكنها لا تفقده مكانته كلياً. وخاصة بعد أن يسر الله للحافظ العراقي تخريج أحاديثه.

مصادر الإحياء:

ومما انتقد به الغزالي أنه يأخذ بعض أفكاره من الآخرين، ولا يعزوها إلى أصحابها، ولقد أتعب بعضهم نفسه في تحديد مصادرالإحياء.

فقال بعضهم: إنه تبطن كتاب (الرعاية) للحارث المحاسبي. وقال بعضهم: إنه اعتمد على كتاب (قوت القلوب) لأبي طالب المكي.

ولقد وفر عليهم الغزالي هذا التعب لو رجعوا إلى كتابه المنقذ من الضلال. إذ بين مصادر علمه في التصوف فقال: «فابتدأت تحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل «قوت القلوب» لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، قدس الله أرواحهم، وغير ذلك من كلام مشايخهم»[1]. تلك هي مصادره العامة التي استقى منها التصوف سلوكاً وعلماً وتأليفاً. .

أما كونه لم يعز كل نص إلى مرجعه، ذلك ـ والله أعلم ـ أنه رأى الأفكار الرئيسة قد أصبحت مشاعة بين علماء التصوف بحيث

(١) المنقذ من الضلال ص ١٣٩.

لا يكون أحدهم أحق أن تنسب إليه من غيره، فقد بلغت من التداول ما جعلها تفقد ختم المنشأ..

ولقد رأيناه حين يريد تسجيل نص - لا فكرة - يرجعه إلى صاحبه، كما فعل في الجزء الثالث من الإحياء حيث قال: «ونقتصر فيه على حكاية فصل ذكره الحارث المحاسبي.. وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه..» ثم ذكر كلام المحاسبي بنصه..[1].

وما كان الغزالي ليسرق كلام غيره، وهو الذي يعيب ذلك، فقد قال في هذا الصدد: «.. ولعله - أي العالم الذي يريد الشهرة - يحكي من الكلام المزيف، فيعزيه إلى قائله، وما يستحسنه فلعله لا يعزيه إليه ليظن أنه من كلامه..»[2].

والذي يبدو أن الغزالي أخذ المادة الخام المتوفرة فصاغها وأخرجها في أحسن شكل. فهي بعد الصياغة ليست كما كانت قبلها ولهذا لم يعزها. مثله في ذلك مثل صائغ الذهب يشتري السبيكة من أي مكان ثم يخرجها وقد أضفى عليها من فنه وفكره وذوقه الشيء الكثير.. إنها لم تعد سبيكة.. ومع ذلك يصر بعضهم أن يعزوها إلى بائعها دون صائغها..

ومن الغريب - على فرض صحة ما قيل في هذا الأمر - أن يوجه إلى الغزالي بالذات من سهام النقد ما لم يوجه إلى غيره ممن فعل مثل ما فعل من الأئمة الكبار، ونكتفي بسوق مثالين على ذلك:

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٦٤.

(٢) إحياء علوم الدين ٣/٣٩٢.

- الإمام ابن الجوزي: في كتابه (تلبيس إبليس). فقد أخذ اسم الكتاب من الإمام الغزالي: فقد جاء في كتاب الإحياء:

«وسنذكر جملة من مكايد الشيطان في كتاب الغرور في آخر هذا الربع، ولعلنا إن أمهل الزمان، صنفنا فيه كتاباً على الخصوص نسميه (تلبيس إبليس) فإنه قد انتشر الآن تلبيسه في البلاد والعباد، لا سيما في المذاهب والاعتقادات..»[1].

ولم يكتف بأخذ الاسم، بل أخذ الموضوع، وكان حرياً به أن يذكر ذلك، ولو في مقدمة الكتاب، ولكنه لم يفعل.

وإذا ذهبنا نستطلع ما جاء في الكتاب وجدنا جلّ مآخذه على الصوفية، مأخوذة من كتاب الإحياء. ولولا الإطالة لذكرت الأمثلة.. ولكن الكتابين في متناول الأيدي يمكن للراغب في ذلك الرجوع إليهما.

وهذا مثال من كتاب واحد، ولم أسع إلى التتبع.

- الإمام ابن القيم: في كتابه (إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان) أشار الإمام ابن القيم في كتابه هذا إلى الإمام الغزالي بجملة قصيرة عند بحثه في الوسوسة فقال: «كما قال أبو حامد الغزالي وغيره: الوسوسة سببها إما جهل بالشرع وإما خبل في العقل، وكلاهما من أعظم النقائص والعيوب»[2].

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٠.

(٢) إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ١/٢١٧ طبع المكتب الإسلامي، تحقيق محمد عفيفي.

ولكنه في أماكن أخرى لم يشر إليه، ونذكر على سبيل المثال واحداً منها:

في بحث محاسبة النفس قال ابن القيم «وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولاً، ثم بمطالعة ما يعمل..».

فهذا البحث الوارد في الجزء الأول من الكتاب (ص ١٣٢ ـ ١٣٦) مأخوذ بكامله من كتاب إحياء علوم الدين، في الجزء الرابع (ص ٣٩٤ ـ ٣٠٦) مع اختلاف يسير في الترتيب. ومحافظة على لفظ «المشارطة» وكذا المثال الذي أورده الغزالي عن «توبة بن الصمة» (ص ٤٠٦) أورده ابن القيم (ص ١٣٦)..

وفي مثال آخر نأخذه من كتاب (طريق الهجرتين) للإمام ابن القيم حين وصف التعبد باسمه تعالى الباطن، فإنه استفاد من وصف الغزالي، حين تحدث عن تجربته الصوفية، ويحسن بنا أن نسوق النصين:

قال الإمام الغزالي: «ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه. وعلى الجملة: ينتهي الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه:

ـ طائفة الحلول.

ـ وطائفة الاتحاد.

ـ وطائفة الوصول.

وكل ذلك خطأ، وقد بينا وجه الخطأ فيه في كتاب «المقصد الأسنى» بل الذي لابسته الحالة، لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان، مما لست أذكره
فظنَّ خيراً، ولا تسأل عن الخبر»[١]

وقال الإمام ابن القيم: «وأما تعبده باسمه الباطن، فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكل اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم معرفةً بريئةً من شوائب التعطيل، مخلصةً من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه.. وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين..»[٢].

وإني إذ أوضح ذلك، فلست راغباً في تتبع العثرات ـ معاذ الله ـ ولكني أردت أن أبين أن ما وجد عند الغزالي في إحيائه موجود أمثاله في كتب الأئمة الكبار.

أغاليط الصوفية:

ومما انتقد على الغزالي في إحيائه، أنه ملأه بأغاليط الصوفية وترهاتهم..

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٤٥.
(٢) طريق الهجرتين ص ٢١.

ولا شك بأن الإحياء يحوي شيئاً من ذلك، ولكن النقاد بالغوا بالأمر، وفي بعض الأحيان لم يكونوا صادقين في عرض القصة أو الفكرة كما وردت في كتاب الإحياء.

وقبل أن أذكر بعض النماذج أحب أن أذكِّر بطريقة الغزالي:

إن الغزالي في كثير من الأحيان يقرر حكم القضية المطروحة، ثم يروي القصص الواردة في الموضوع، وقد تكون القصة في مضمونها خارجة عن الحكم الذي قرره. وفي هذه الحالة من الإنصاف أن نحاسبه على الحكم الذي قرره، لا على القصة التي ساقها.

وقد تكون القصة المروية منسوبة إلى واحد من المشايخ الذين يجلهم، وهنا يكون موقفه موقف المتأدب، لا موقف المنكر، لأن غالب القضايا اجتهادية والمخطىء فيها له أجر.

ونسوق مثالين مما استنكر على الغزالي في الإحياء، وهما مما شنع عليه فيه:

المثال الأول: وهو إقرار الغزالي للسفر بالصحراء مع عدم حمل الزاد اختباراً للتوكل[1]: وإني أسوق نص الإمام الغزالي:

«.. ربما يميل إلى القناعة والتوكل، فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل، وليس يدري أن ذلك بدعة، لم تنقل عن السلف والصحابة، وقد كانوا أعرف بالتوكل منه، فما فهموا أن التوكل المخاطرة بالروح، وترك الزاد، بل كانوا يأخذون الزاد، وهم متوكلون على الله تعالى لا على الزاد، وهذا ربما يترك الزاد وهو متوكل على سبب من الأسباب واثق به».

---

(١) المنتظم لابن الجوزي ٩/١٦٩ - ١٧٠.

هذا ما جاء في الإحياء ج ٣ ص ٤٠٦، وجاء في الجزء الرابع ص ٢٦٦:

«.. كالذي يفارق الأمصار والقوافل، ويسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً، ويكون سفره من غير استصحاب زاد، فهذا ليس شرطاً في التوكل، بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين، ولا يزول التوكل به، بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى، لا على الزاد كما سبق. ولكن فعل ذلك جائز، وهو من أعلى مقامات التوكل، ولذلك كان يفعله الخواص».

ويلاحظ في كلا النصين أن رأي الغزالي واحد، وهو المنع من ذلك، وأن هذا الفعل لم ينقل عن السلف.. وأن حمل الزاد لا يزول به التوكل.. هذا هو رأي الغزالي.

ولكن هذا الفعل لما نقل عن الخواص، رأى أن فعله جائز ولكن ليس لعامة الناس وإنما لمن وصل إلى درجة عالية في التوكل. فكأن الغزالي يستثني من تقريره السابق من كان في مستوى الخواص، وهي حالة خاصة.

المثال الثاني: قصة (لص الحمام).

قال ابن الجوزي: «وحكى أبو حامد الغزالي عن ابن الكريني أنه قال نزلت في محلة فعرفت فيها بالصلاح، فنشب في قلبي، فدخلت الحمام، وعينت على ثياب فاخرة، فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي، وخرجت فجعلت أمشي قليلاً قليلاً، فلحقوني فنزعوا مرقعتي، وأخذوا الثياب، وصفعوني، فصرت بعد ذلك أعرف بلص الحمام، فسكنت نفسي».

قال أبو حامد: فهكذا كانوا يروضون أنفسهم حتى يخلصهم الله من النظر إلى الخلق، ثم من النظر إلى النفس. وأرباب الأحوال ربما عالجوا أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه، مهما رأوا صلاح قلوبهم، ثم يتداركون ما فرط منهم من صورة التقصير، كما فعل هذا في الحمام.

قلت: سبحان من أخرج أبا حامد من دائرة الفقه، بتصنيفه كتاب الإحياء، فليته لم يحك فيه مثل هذا الذي لا يحل. والعجب منه أنه يحكيه، ويستحسنه، ويسمي أصحابه أرباب أحوال، وأي حالة أقبح وأشد من حال من خالف الشرع. .

وكيف يحل للمسلم أن يعرض نفسه لأن يقال عنه سارق، وهل يجوز أن يقصد وهن دينه، ومحو ذلك عند شهداء الله في الأرض. .»[1]

وإني أسوق نص الإحياء بكامله لنقف على كيفية سياق الحادثة:

«إسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق، وتفارقه لذة القبول، ويأنس بالخمول، ويرد الخلق، ويقنع بالقبول من الخالق، وهذا هو مذهب الملامتية، إذ اقتحموا الفواحش في صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس فيسلموا من آفة الجاه.

وهذا غير جائز لمن يقتدى به، فإنه يوهن الدين في قلوب

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠ دار الكتاب العربي تحقيق: السيد الجميلي.

المسلمين. وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدم على محظور لأجل ذلك. بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند الناس.

كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد، فلما علم بقربه منه، استدعى طعاماً وبقلاً، وأخذ يأكل بشره، ويعظم اللقمة، فلما نظر إليه الملك، سقط من عينه وانصرف. فقال الزاهد: الحمد لله الذي صرفك عني.

ومنهم من شرب شراباً حلالاً في قدح لونه لون الخمر، حتى يظن به أنه شرب الخمر، فيسقط من أعين الناس.

وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه، إلا أن أرباب الأحوال، ربما يعالجون أنفسهم بما لا يفتي به الفقيه مهما رأوا إصلاح قلوبهم فيه، ثم يتداركون ما فرط منهم فيه من صورة التقصير.

كما فعل بعضهم: فإنه عرف بالزهد، وأقبل الناس عليه، فدخل حماماً، ولبس ثياب غيره، وخرج، فوقف في الطريق حتى عرفوه، فأخذوه وضربوه، واستردوا منه الثياب، وقالوا: إنه طرار وهجروه»[1].

ونحن مع الإمام ابن الجوزي في تمنيه أن الإمام الغزالي لم يحك هذه القصة، ولكنا لسنا معه في قطعها عما قبلها مما أورده الغزالي من الحكم الفقهي:

فقد قرر الغزالي أن فعل «الملامتية» ـ من تقحم الفواحش في

(١) إحياء علوم الدين ٣/٢٨٨.

صورتها ليسقطوا أنفسهم من أعين الناس ـ غير جائز لأحد من الناس:

ـ أما من يقتدى به فلا يجوز له ذلك.. فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين.

ـ وأما غيره: فلا يجوز أن يقدم على محظور لأجل ذلك.

والمسموح به هو فعل المباحات التي تسقط القدر عند الناس ومثّل لنا بالذي أكل بشراهة وكبر اللقمة.

هذا ما قرره الغزالي، وهو حكم واضح لا غموض فيه، فما الذي ينكر عليه؟! ثم تحدث عن واقعتين:

إحداهما شرب ما هو حلال في صورة شرب الخمر.

والثانية: هذا الذي أخذ الثياب وهو لا يريد سرقتها ولذلك تباطأ حتى لحق به القوم ثم قرر الحكم الفقهي لذلك بقوله: وهذا في جوازه نظر من حيث الفقه: أي ليس هناك اتفاق على التحريم ولا اتفاق على الحل، فالمسألة ينظر إليها من زاويتين.. ولذا لو سئل ابن الجوزي نفسه لم تكن له الجرأة على التحريم.. ولم يقل بالحل..

ثم قرر الواقع: وهو أن مشايخ الصوفية، ربما يعالجون قضاياهم بغير ما يعالج به الفقيه هذه القضايا فأين الخطأ في فعل الغزالي؟ وأين كان خروجه عن دائرة الفقه؟

إن قطع المثال عن القول السابق له الذي هو تقرير الغزالي للحكم فيه نظر..؟! وما ندري هل قرأ ابن الجوزي المثال دون أن يقرأ ما سبقه!!

إن كثيراً من النقد الذي وجه للغزالي هذا شأنه، ومن المؤسف أن الذين كتبوا عن الغزالي تناقلوا هذه الحادثة وأمثالها عن ابن الجوزي وغيره دون الرجوع لها في مصدرها الأول وتناقلوا النقد على أنه مسلمة من المسلمات.

حتى إن شارح الإحياء لما جاء يناقش هذه المسألة كانت أجوبته غير مقنعة[1]، ولم يرجع إلى نص الإحياء، ولو رجع لوجد فيه الجواب.

إحراق كتاب الإحياء:

تم إحراق كتاب الإحياء في مدينة قرطبة من بلاد الأندلس، ولنستمع إلى خبر ذلك كما ينقله صاحب كتاب «المعيار المعرب»، قال:

قال ابن القطان: لما وصل إحياء علوم الدين إلى قرطبة تكلموا فيه بالسوء، وأنكروا عليه أشياء، لا سيما قاضيهم ابن حمدين، فإنه أبلغ في ذلك، حتى كفر مؤلفه، وأغرى السلطان به، واستشهد بفقهائه، فأجمع هو وهم على حرقه، فأمر علي بن يوسف بذلك بفتياهم، فأحرق بقرطبة على الباب الغربي في رحبة المسجد، بجلوده بعد إشباعه زيتاً، بمحضر جماعة من أعيان الناس، ووجه إلى جميع بلاده يأمر بإحراقه، وتوالى الإحراق على ما اشتهر عنه ببلاد المغرب في ذلك الوقت..[2].

---

(١) انظر شرح الإحياء للزبيدي ١/٣٨.

(٢) المعيار المعرب، للونشريسي ١٢/١٨٥.

وقد طبل وزمر لهذه الحادثة الصغار من أعداء الغزالي، وعدوا هذا الإحراق إدانة جماعية للإمام الغزالي.. ولعلهم ظنوا أن علم الغزالي سيقضى عليه بهذه الطريقة؟!.

ومن غريب المصادفات أن يتم إحراق كتب الإمام ابن حزم قبل خمسين عاماً، وعلى مقربة من المكان الذي تم فيه إحراق الإحياء، حيث كان ذلك في مدينة إشبيلية..

فهل كان في كتب ابن حزم أيضاً ما تستحق الإحراق من أجله..؟! نعم: هناك سبب واحد في كلا الإحراقين:

فكلا الرجلين ـ ابن حزم، والغزالي ـ كانت دعوتهما صريحة إلى تحرير العقل من رق التقليد وإلى الرجوع إلى المصادر الأصيلة من الكتاب والسنة..

وكان وراء الإحراقين مخالفة مذهب الإمام مالك.. كان ذلك الحجة المعلنة في إحراق كتب ابن حزم، وبقي السبب الحقيقي متوارياً خلف هذه الحجة.. وكانت مخالفة مذهب الإمام مالك السبب الحقيقي غير المعلن وراء إحراق الإحياء. وكان المعلن شيئاً آخر.. وليس من موضوعنا تفصيل الأمر في ذلك.

قال الأستاذ محمد أبو زهرة في التعليق على حرق كتب ابن حزم:

«انتهى أمر ابن حزم.. ولكن لم ينته علمه إلى الكتمان، فإذا كان الذين طاردوا ابن حزم قد أرادوا إطفاء نور العلم الذي انبعث بين جنبيه، فقد أراد الله تعالى إتمامه بجعله للطالبين له المقبلين عليه ولقد طوى التاريخ ذكر الذين ناوؤوه، وبقي اسمه لامعاً بين

علماء المسلمين جميعاً، بل بين علماء الإنسانية قاطبة»[(١)].

وما قاله الأستاذ أبو زهرة ينطبق على حجة الإسلام الغزالي..

الخلاصة:

وخلاصة القول: أن كتاب الإحياء هو من صنع البشر، ولا يعيبه وجود مآخذ معدودة عليه، كما قال الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر.

ونضيف إلى ذلك: أن كتاب الإحياء موسوعة ومعلمة، وليس هو بالكتاب الصغير ووجود بعض الأخطاء لا يلغي مكانة الكتاب ويمكن الإشارة إلى ما ينتقد عليه الكتاب:

١ ـ استشهاده بالأحاديث الضعيفة والموضوعة.

٢ ـ وجود بعض الأحكام التي بنيت على هذه الأحاديث.

٣ ـ ذكر كثير من القصص التي تحمل المبالغات في السلوك الصوفي.

٤ ـ الحديث عن الكشف والمكاشفة التي يتحدث عنها في الإحياء.

قال الدكتور القرضاوي: على أن من أخطر ما يؤخذ على الغزالي ـ بالنسبة إلى التصوف ـ هو قضية «الكشف» أو «المكاشفة» التي يحصل الصوفي على علومها وأنوارها بعد الرياضة والتصفية الروحية. وبعد الترقي في مدارج السالكين

---

(١) تاريخ المذاهب الإسلامية، لأبي زهرة ٢/٣٦٥.

ومنازل السائرين، وقد صرح الغزالي أن «علم المكاشفة» مما لا يجوز أن يودع في الكتب[1].

ومهما يكن من أمر، فإنا نختم هذا الفصل بقول الإمام الذهبي: «قلت: الغزالي إمام كبير، وما من شرط العالم أنه لا يخطىء»[2].

(١) الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه للقرضاوي ص ١٣٩.
(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٩/٣٣٩.

الفصل الخامس

ناقدو الغزالي

ما زال الناس في شأن الغزالي ـ في حياته وبعد وفاته حتى يومنا هذا ـ فريقين:

فريق رأى فيه: الإمام حجة الإسلام، الذي وقف في وجه الفلسفة، في وقت عز فيه القادرون على الوقوف تجاهها، فاضح الباطنية، العالم الفقيه، الأصولي، المتكلم، الزاهد، الورع، الصوفي الذي حرر الصوفية من الدجل والشطح والانحراف.. العالم الذي قرن العمل إلى العلم..

وفريق آخر، من طوائف شتى، ومن نحل مختلفة، جمعهم معاً على طريق واحد، نقدهم للغزالي، أو كرههم له، أو حسدهم له.. وهؤلاء ينتشرون على ساحة عريضة، في أقصى اليمين منها من اقتصر على النقد العلمي الهادف.. وفي أقصى طرفها الآخر من ذهب إلى تكفيره والطعن في عقيدته، أو اعتباره مسؤولاً عن التخلف الحضاري.. أو..

وقد بينا في الفصل السابق النقد الذي وجه إليه بشأن كتاب الإحياء، ونتحدث في هذا الفصل عن النقد الموجه إليه بشكل عام.

وبما أن الناقدين طوائف وشيع، فسوف نتحدث عن النقد بحسب دوافعه؛ ونقتصر على أهم ما انتقد به بشكل مختصر:

● الفلسفة:

إن اشتغال الإمام الغزالي بالفلسفة كان سبباً لانتقاده من طائفتين، لا يجمعهما إلا كونهما على طرفي نقيض.

الأولى: بعض علماء المسلمين الذين رأوا في الفلسفة عدواً للإسلام، ولكنهم رأوا أن الموقف من هذا العدو البعد عنه واعتزاله، ولم يدركوا أنه ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، وظنوا أنهم إذا تركوا الفلسفة تركتهم. وهم ممن لا يدرون ما حولهم، فلما رأوا الغزالي يشتغل بالفلسفة انتقدوه، ولم يسألوا أنفسهم: لماذا اشتغل الغزالي بها؟ وبالتالي لم يستطيعوا أن يقدروا عمله في هذا الصدد، وقد تكلمنا على ذلك فيما سبق.

الثانية: الفلاسفة أنفسهم الذين ارتدوا بعد هجومهم ليأخذوا مكانهم في خنادق الدفاع، وقد كان حنقهم على الغزالي كبيراً، بمقدار ما ناله من الفلسفة من إزاحة الستار عن هيكلها وإرجاعها إلى أصولها.. وإزالة مكانتها من القلوب.

واستمر هذا الحنق حتى وقتنا الحاضر إذ حمَّل المؤلف (أنطونيوس كرم) الغزالي ومدرسته نتيجة تخلف الأمة وسقوط حضارتها في كتابه (العرب وتحديات التكنولوجيا)..

وقد ناقشه الدكتور القرضاوي مناقشة رائعة لا مجال لنقلها، ولكنا نذكر الفقرة الأولى منها: «إن فلسفة يستطيع فرد واحد من الناس - مهما علا كعبه في المقدرة العقلية والعلمية - أن يأتي

على بنيانها من القواعد بكتاب يؤلفه أو كتب، لهي فلسفة جديرة أن تختفي من عالم الفكر، بل لا تستحق أن تسمى فلسفة»[١].

تباكى أنطونيوس كرم على الفلسفة التي هدمها الغزالي!! وما ندري هل كان ذلك حقاً من أجل الفلسفة، أم كان على عائق من العوائق التي أقامها أعداء الإسلام في وجهه؟!! وهكذا التقى في النقد فريقان: عدو ماكر، وصديق جاهل، على حد قول الغزالي.

● المنطق:

وانتقد عليه اشتغاله بالمنطق، وإدخاله في علم أصول الفقه. ولا نريد الإطالة هنا، ولكنا نكتفي ببيان موقفه من المنطق وعمله فيه، نقلاً عن العقاد:

«.. وإذا أحيل البحث إلى الإمامين: الغزالي، وابن تيمية، فنحن بين يدي حجتين من حجج المنطق، لا يسبقهما فيه سابق من المتقدمين أو المتأخرين، ومناقشتهما للمنطق مناقشة تصحيح وتنقيح، وليست مناقشة هدم للأسس التي يقوم عليها، أو تفنيد للأصول التي يرجع إليها، فهما يريدان إثبات الخطأ على من يسيؤون تطبيق القياس والبرهان، ولا يريدان محو القياس والبرهان في علم من علوم الدين أو الدنيا التي جاءت من اليونان، أو نشأت بين المسلمين»[٢].

وابن تيمية - رحمه الله - إنما أنكر على الغزالي قوله: إن تعلم

(١) الغزالي بين مادحيه وقادحيه ص ١٧٥. وهناك تفصيل قيم يحسن الرجوع إليه.
(٢) التفكير فريضة إسلامية، تأليف عباس محمود العقاد، فصل المنطق.

المنطق فرض كفاية، ولم ينكر عليه تعلم المنطق. . الذي اشتركا فيه.

● **التصوف:**

وهنا نجد أنفسنا أمام أكثر من فريق من النقاد. فهناك من المسلمين من يكره التصوف أياً كان، ولم يلتزموا موقف العلم والحق الذي وقفه ابن تيمية من هذا الموضوع والذي ذكرناه في توطئة الكتاب. . فهؤلاء انتقدوا الغزالي لتصوفه. .

وفريق آخر وجد في الزهد الذي يدعو إليه التصوف هدماً للحضارة، ودعوة إلى التخلف، وعدم اهتمام بالصالح العام. . ولسنا بحاجة إلى مناقشة الفريق الأول، فهم غير مستعدين لأي مناقشة. .

وأما الفريق الثاني: فمن المؤكد أنهم لم يقرؤوا كتاب الإحياء، وسوف تكون الإجابة على نقدهم في الباب القادم من هذا الكتاب.

● **كتب منسوبة إليه:**

ذكرت عند حديثي عن ثقافة الغزالي، أن هناك كتباً نسبت إليه وليست له، وبناءً على هذه الكتب، ذهب الدكتور سليمان دنيا إلى القول بأن للغزالي مذهبين[1]:

ـ مذهب للعوام: وهو ما ضمنه بعض كتبه مثل التهافت.

(١) انظر مقدمة كتاب تهافت الفلاسفة (ص ٦٦ ـ ٦٧) بتحقيق الدكتور سليمان دنيا، وكذا كتابه (الحقيقة في نظر الغزالي).

ـ ومذهب للخواص: يتبع فيه الفلاسفة.

وهذا استنتاج غريب، يجعل من الغزالي واحداً من المنافقين. . وهذا ما يتناقض مع قوة شخصية الغزالي، ومع إخلاصه الذي سعى إليه، ومع كل جوانب شخصيته.

قال الدكتور القرضاوي: «وأنا أعيذ أبا حامد أن يكون ذا وجهين، وأن يكفر الفلاسفة في الظاهر ويتبعهم في الباطن»[1].

وما نظن أن الدكتور دنيا لم يطلع على ما قيل من عدم صحة نسبة هذه الكتب إليه[2]. . ولكنها ثالثة الأثافي في نقد الغزالي، حيث يريد إلزام الغزالي بهذه الكتب ليحقق سبقاً عن شخصيته!!.

● **افتراءات:**

يحاول بعضهم أن يلصق بالغزالي، ما قبحه الغزالي واسترذله، ولا نريد الإطالة في هذا التمهيد بل نترك القارىء أمام النصوص:

ذكر الدكتور محمد رشاد سالم في كتابه «مقارنة بين الغزالي وابن تيمية» (ص ٧٢) نقلاً عن أبي العلا عفيفي، ما نصه:

«ويذكر الدكتور أبو العلا عفيفي أن ابن عربي تأثر بمصادر إسلامية هي بعينها التي تأثر بها الغزالي، ومن أهم هذه المصادر رسائل «إخوان الصفا» التي يقول عنها: لا حرج علينا إذن أن

(١) الغزالي بين مادحيه وقادحيه ص ١٦٨.
(٢) انظر القول في هذه الكتب عند الحديث عن ثقافة الغزالي في أول هذا الكتاب.

نقرر أن ابن العربي ومن على شالكته من متصوفي الإسلام الذين صبغوا تصوفهم صبغة فلسفية ـ أو بالحري: صبغوا فلسفتهم صبغة تصوفية ـ قد استمد الشيء الكثير من مادة مذهبه من رسائل إخوان الصفا، لا سيما الأجزاء التي أصلها من الأفلاطونية الجديدة».

ويقول في موضع آخر عن ابن عربي: «وهو كأبي حامد الغزالي ينقم على الإسماعيلية ـ وإخوان الصفا منهم ـ وينقدهم نقداً مراً، ثم ينسى أو يتناسى فضلهم، وما هو مدين لهم به من مادة ومنهج» انتهى ما نقله الدكتور سالم.

ونقل هذا النص عنهما ـ عن العفيفي، وسالم ـ غيرهما ممن أراد الإساءة إلى الإمام الغزالي وأراد اتهامه في عقيدته.

ولسنا نجهد أنفسنا في الرد فقد رد الغزالي على هذا الموضوع وبين طريقته، ولكنا قبل ذلك نضع بين يدي القارىء رأي الغزالي في رسائل «إخوان الصفا» فربما لم يطلع الدكتور عفيفي عليه؟!.

قال الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال عند حديثه عن الباطنية:

«ومنهم ـ الباطنية ـ من ادعى شيئاً من علمهم، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة «فيثاغورث» وهو رجل من قدماء الأوائل، ومذهبه أرك مذاهب الفلاسفة. وقد رد عليهم «أرسطاطاليس» بل استركَّ كلامه، واسترذله، وهو المحكي في كتاب «إخوان الصفا» وهو على التحقيق حشو الفلسفة»[1].

---

(١) المنقذ من الضلال ص ١٣٨.

هذه نظرة الغزالي إلى كتاب «إخوان الصفا» الذي يعده الدكتور عفيفي مرجعاً للغزالي، مادة ومنهجاً!!.

أما أن يتشابه بعض كلام الغزالي بما جاء في رسائل إخوان الصفا فإن الغزالي نفسه يوضح لنا ذلك بقوله:

«ولقد اعترضَ على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا، في أسرار علوم الدين، طائفةٌ من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تتفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم.

وزعمت: أن تلك الكلمات من كلام «الأوائل»[1] مع أن بعضها من مولدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر. وبعضها يوجد في الكتب الشرعية. وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية. وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه مؤيداً بالبرهان، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلم ينبغي أن يهجر، أو ينكر؟

فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن نهجر كل حق سبق إليه خاطر مبطل، لزمنا أن نهجر كثيراً من الحق، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن، وأخبار الرسول [ﷺ]، وحكايات السلف، وكلمات الحكماء والصوفية، لأن صاحب كتاب «إخوان الصفا» أوردها في كتابه، مستشهداً بها، ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها إلى مذاهب باطلة. ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا، بإيداعهم إياه في كتبهم»[2].

---

(١) الفلاسفة القدماء.

(٢) المنقذ من الضلال ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

وإذن فالغزالي يوضح لنا أن كتاب إخوان الصفا اعتمد على مذاهب ركيكة مسترذلة في الفلسفة، بل هي حشو الفلسفة، واستشهد بآيات كريمة وبأخبار عن الرسول ﷺ، تمويهاً على الناس واستدراجاً لقلوب الحمقى، ليصل بهم بواسطتها إلى مذاهب باطلة.

هذا الإمام الذي يعرف من خبث وسوء رسائل «إخوان الصفا» ما لا يعرفه غيره يتهم بأنه استمدَّ منها مادته ومنهجه!! ونترك الحكم للقارىء الكريم:

هل نأخذ برأي الدكتور العفيفي ومن استشهدوا بكلامه.. بناءً على تخمين وظن أم نأخذ برأي الإمام الغزالي وقد وضح الأمر بما لا غبار عليه؟!

أيهما الثقة العدل؟

● **كتيبات في نقده:**

ظهرت في الآونة الأخيرة كتيبات[1] في نقد الغزالي، ولكنها جاءت بنهج غير معهود في باب النقد.

فمن المتعارف عليه لدى النقاد ـ سواء أكان النقد موجهاً إلى كاتب أم إلى نص ـ أن يتناول الناقد طرفين أساسيين، هما: الإيجابيات والسلبيات.

ولكن هذه الكتب اقتصرت على ذكر السلبيات، وتلك طريقة

(١) هذه الكتيبات، بعضها يتألف من أوراق قليلة، وبعضها فيه مئات الصفحات.

جديدة، ولعلها راجعة إلى نفسية الناقد، فهي على حد قول الشاعر:

وترى الشوك في الغصون وتعمى
أن ترى الندى فوقه إكليلا

فهي لا تستطيع إلا رؤية الجانب المظلم!!

وقد قرأت أكثر من كتاب في هذا الباب، وقد خرجت بعد قراءة واحد منها بقناعة كاملة أن الكاتب يدفع القارىء إلى تكفير الغزالي.. وإن لم يصرح هو بذلك. فقد جمع في كتابه كل ما نسب إلى الغزالي من سلبيات، دون إعمال النظر فيها، ومصدرها في الغالب إما صديق جاهل، أو عدو للإسلام قبل أن يكون عدواً للغزالي.

ولا نريد أن نناقش هذه الكتيبات في تخرصاتها، ولكني أكتفي بنقل نص واحد من أحد هذه الكتب أضعه بين يدي القارىء.

قال: «ويأخذ الغزالي عن هرمس اليوناني أسلوبه في توبيخ النفس وعتابها، والطريقة الخطابية في ذلك، وإذا أردت بيان ذلك، فعليك بقراءة هذا الفصل من الإحياء «باب توبيخ النفس ومعاتبتها، وهذا الفصل مطابق لكتاب «معاذلة النفس» الذي نشره د. عبد الرحمن بدوي مع رسائل أخرى، ضمن كتاب الأفلاطونية المحدثة عند العرب، والذي قال عنه بأنه كان ينسب إلى هرمس، وأحياناً قليلة إلى أفلاطون».

يقول الغزالي في هذا الفصل على سبيل المثال: «يا نفس ما أعظم جهلك، لو واجهك عبد من عبيدك، بل أخ من أخوانك بما

تكرهينه كيف كان غضبك ومقتك له؟ ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت، هيهات، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك، وآمنت به فما لك تسوفين العمل، والموت لك بالمرصاد؟ أما تتأملين مذ كم تعدين نفسك تقولين: غداً غداً، فقد جاء الغد، وصار يوماً، فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يوماً كان له حكم الأمس، لا بل الذي تعجزين عنه اليوم فأنت غداً أعجز وأعجز، لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها.. ويحك يا نفس أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا، ويأنس بها، مع أن الموت من ورائه، فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدري، أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك..» الخ.

ومع ما في هذه العبارات من الأسلوب الجمالي المرقق، فإن المصدر ليس إسلامياً، وإنما هو يوناني المصدر، ولسنا نعيب على الغزالي استغلاله لهذه النصوص اليونانية اللطيفة لترقيق قلوب المسلمين، وإنما نعيب كثرة النقول عن أولئك القوم، وإعطائها الصبغة الإسلامية من غير إحالة منه على تلك المصادر.

يقول هرمس: «يا نفس! حتى متى، وإلى متى أنا سائق لك إلى طريق المنفعة والنجاة لي ولك، فلا تنساقين، يا نفس إني لأتأمل حالك فيطول تعجبي منه، وتظهرين القول أنك زاهدة في الشقاء والأحزان، يا نفس كل مكروه أصابك وأنت في عالم

الكون فيبقى أن سببه وأصله هو من قِبلَك، ومن حيث خطؤك وزللك.

يا نفس إنه ما من أحد يسكن في موضع إلا وهو يشتهي أن ينتقل منه إلى ما هو أشرف من الأول وأوسع وأبهى، فما لك يا نفس تؤثرين أن تسكني في المساكن المظلمة الخربة الوحشية؟ وتتركين المساكن النيرة المضيئة الآنسة؟

يا نفس إن كرهت العقاب فاتقي الزلل واحذريه، وتجنبي الخطأ واطرحيه. يا نفس ما أعظم حسرة الواقع في المكروه بعلم وبصيرة، وما أشد عذابه..».

قال البدوي بعد هذا العرض: «ولهذا نستطيع أن نقرر بكل اطمئنان أن الغزالي لم يهجر الفلسفة، إلا ليتحول إلى فلسفة أخرى، لقد هجر فلسفة أرسطو وأتباعه اليونانيين والمسلمين، ليتحول إلى فلسفة أفلوطين ـ والأفلاطونية المحدثة بعامة ـ وظل لهذه الأخيرة مخلصاً حتى آخر عمره» انتهى.

أقول:

ـ أما تشابه النصين فإنا نترك الإجابة عليه للغزالي، ولذا فإنا نحيل القارىء إلى الفقرة السابقة «افتراءات» مع الإشارة إلى الفارق من حيث المضمون بين النصين.

ـ وأما النتيجة التي توصل إليها د. بدوي بناءً على هذين النصين، والتي هي تقريره بكل اطمئنان: أن الغزالي لم يهجر الفلسفة.. وإنما تحول من فلسفة أرسطو إلى فلسفة أفلوطين.. فهي الأمر الذي يستوقف أي قارىء ليس له ثقافة الدكتور بدوي

ولا ثقافة ناقل النص الذي نقله مقرراً له مصدقاً بما فيه؟!

نص يتعلق بمعاتبة النفس.. ما هي علاقته بالفلسفة، سواء أكانت قديمة أم جديدة؟ وكيف يقرر على أساسه ذلك الأمر الخطير، وهو استمرار ولاء الغزالي للفلسفة الوثنية؟!

إن بعض الكتاب ينظرون إلى قارئهم من عل، فلا عليهم أن يستخفوا بعقله.. أليسوا هم الكتاب؟! فلهم الحق أن يقرروا ما يرونه.. وعلى القارىء أن يصدقهم!!.

ولو أردنا أن نقبل منهم هذا الاستنتاج، لكان لنا أن نقرر أن الإمام ابن القيم يقرر الفلسفة لأنه نقل عن الغزالي «فلسفته!» في مشارطة النفس ودون أن ينسبها إليه.. فهل يقول بهذا عاقل؟!

نكتفي بهذه النماذج من النقد الموجه إلى الإمام الغزالي، وما لم أذكره فهو على شاكلة ما ذكرته.

ويحسن بنا أن نختم هذا الفصل، بل هذا الباب ـ كما فعلنا في الفصل السابق ـ بقول الإمام الذهبي:

«فرحم الله أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، لكن لا ندعي عصمته من الغلط والخطأ»[1].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٩/٣٤٦.

الباب الخامس

الإمام المصلح

لقد كان دور الإمام الغزالي عظيماً في ميدان الإصلاح، ذلك أن فاعليته لم تقتصر على جانب واحد من جوانب الحياة، بل شاركت في أكثرها، إن لم نقل فيها جميعاً.

ولذلك كانت الكتابة عن دور الغزالي في الإصلاح واسعة متشعبة الأطراف..

ولذا فسوف نكتفي بسوق نماذج تدل على هـذا الدور العظيم يتبين منها مكانة الرجل في هذا المضمار.

الفَصل الأول

الإصلاحُ في مَيدانِ الفِكر

اجتهـد الإمـام الغـزالي في إيقـاظ الـوعي في المجتمـع الإسلامي، وذلك بتحرير العقل من رق التقليد، وبالعودة إلى منابع الإسلام الأصيلة من كتاب وسنة، والتأكيد على النظرة الكلية الشاملة للمنهج الإسلامي.

ونحاول في هذا الفصل الإشارة إلى دوره في هذا الميدان.

دور العقل:

ما من شك في أن الإسلام قد أعطى دوراً كبيراً للعقل في كيان الإنسان، ويكفي أن نشير إلى أن فقدان العقل يعني بلغة الشرع فقدان التكليف، وبالتالي: عدم المسؤولية.

ولكن المشكلة تكمن أن بعضهم ذهب يعلي من شأن العقل حتى جعله حاكماً على الأوامر الشرعية.. كما ذهب بعضهم الآخر إلى وضع يكاد يلغي فيه دور العقل.

وقد ظن بعضهم أن الغزالي بعد موقفه الأخير من الفلسفة قد تجاهل دور العقل. ولذا يحسن بنا أن نتعرف على موقفه من هذه القضية:

إن القضية الأساسية في هذا الموضوع أن يتقرر في الأذهان أنه لا تعارض بين العقل والشرع، وأن إعلاء صوت العقل المستقل ـ في نظر الإسلام ـ يعني إعلاء صوت الإيمان، كما يقول الدكتور القرضاوي.

ولا يستغنى بأحدهما عن الآخر. وفي هذا الصدد يقول الغزالي:

«فلا غنى بالعقل عن السماع، ولا غنى بالسماع عن العقل، فالداعي إلى محض التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل، والمكتفي بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور. فإياك أن تكون من أحد الفريقين، وكن جامعاً بين الأصلين، فإن العلوم العقلية كالأغذية، والعلوم الشرعية كالأدوية».

ثم يقرر بناءً على هذا عدم تعارض العلوم العقلية مع العلوم الشرعية فيقول:

«وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية، وأن الجمع بينهما غير ممكن، هو ظن صادر عن عمى في عين البصيرة، نعوذ بالله منه.

بل هذا القائل ربما يناقض عنده بعض العلوم الشرعية لبعض فيعجز عن الجمع بينهما، فيظن أنه تناقض في الدين، فيتحير به، فينسل من الدين انسلال الشعرة من العجين، وإنما ذلك لأن عجزه في نفسه خيل إليه نقضاً في الدين وهيهات!!»[١].

ولكن العقل الذي كرم الله الإنسان به، وجعله أداة التعرف عليه، بواسطة النظر في مخلوقاته سبحانه وتعالى، ليس مطلقاً من كل قيد، وليس أهلاً لكل إدراك، فهناك أشياء لا بد أن يتلقاها

(١) إحياء علوم الدين ٣/١٧.

مسلَّمات. وهي السمعيات التي يتلقاها عن الأنبياء. وبهذا يقرر الغزالي أن على العقل أن يقرر أمرين:

ـ الأول: إثبات وجود الله.

ـ الثاني: إثبات النبوة.

وإذا كان إثبات القضية الأولى معلوماً طريقه، وهو النظر في مخلوقات الله.. فما طريق إثبات القضية الثانية؟

وبالمثال الواقعي يوصلنا الغزالي إلى ذلك، فهو يرى: «أن الإنسان خلق من بدن وقلب، وأعني بالقلب حقيقة روحه، التي هي محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة.

وأن البدن له صحة بها سعادته، ومرض فيه هلاكه.

وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو ﴿إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[١]، وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى: ﴿في قلوبهم مرض﴾[٢].

وأن الجهل بالله سم مهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى، داؤه الممرض.

وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى، دواؤه الشافي.

وأنه لا سبيل إلى معالجته بإزالة مرضه وكسب صحته، إلا بأدوية، كما لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك.

وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا

(١) سورة الشعراء، الآية ٨٩.
(٢) سورة البقرة، الآية ١٠.

يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء، الذين أخذوها من الأنبياء، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء[1]، فكذلك بان لي ـ على الضرورة ـ : أن أدوية العبادات ـ بحدودها ومقاديرها المحدودة، المقدرة من جهة الأنبياء ـ لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء، الذين أدركوا تلك الخواص، بنور النبوة، لا ببضاعة العقل».

ثم يعطينا الخلاصة بقوله:

«وعلى الجملة: الأنبياء أطباء أمراض القلوب. وإنما فائدة العقل وتصرفه:

ـ أن عرَّفنا ذلك، وشهد للنبوة بالتصديق.

ـ ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة.

ـ وأخذ بأيدينا، وسلمنا إليها ـ أي النبوة ـ تسليم العميان إلى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين.

وإلى ها هنا مجرى العقل ومخطاه، وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه»[2].

وهكذا يوضح الإمام الغزالي قضية إثبات النبوة، وأنها مهمة العقل الثانية. ثم يبين حدود هذه المهمة بالأمور الثلاثة الآنفة الذكر وهي:

(1) يؤيد هذا ما نقل عن الرسول ﷺ في هذا الميدان، وأفرد بالتأليف تحت عنوان: الطب النبوي.

(2) المنقذ من الضلال. بتقديم عبد الحليم محمود ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

١ ـ التوصل إلى ضرورة النبوة والتصديق بها.

٢ ـ عجز العقل عما يدرك بطريق النبوة.

٣ ـ التسليم للأنبياء واتباعهم..

وهذا الأمر الذي يعرضه الغزالي بهذه السهولة، وبهذا الأسلوب المقنع، كان حصيلة جهد توصل فيه أثناء عزلته إلى هذه المقررات:

فهو يقدم لما نقلناه عنه بقوله:

«ثم إني واظبت على العزلة والخلوة، قريباً من عشر سنين، وبان لي في أثناء ذلك ـ على الضرورة ـ من أسباب لا أحصيها: مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني، ومرة بالقبول الإيماني أن..».

ويختم القول مرة أخرى بقوله:

«فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة»[1].

وإذا كان الغزالي قد حدد للعقل الجهة التي يتلقى عنها.. فقد حرره بذلك من الخرافات والوهم والتقليد.. واتباع الرؤساء..

رفض التقليد:

يرى الإمام الغزالي ـ بعد أن حدد مصدر التلقي ـ أن العالِم ينبغي أن لا يكون مقلداً. ويشرح لنا ذلك عندما تحدث عن صفات علماء الآخرة؛ فيقول:

(1) المصدر السابق ص ١٥٣ و ١٥٤.

«ومنها أن يكون اعتماده في علومه على بصيرته وإدراكه بصفاء قلبه، لا على الصحف والكتب، ولا على تقليد ما يسمعه من غيره، وإنما المقلَّد[1] صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به وقاله. وإنما يقلَّد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ».

ثم إن العالم عليه أن يُعمل عقله في تفهم أسرار أقواله ﷺ وأفعاله، لأنها لا تخلو عن أسرار، واكتشاف ذلك هـو مهمة العالم. . قال:

«ثم إذا قلد صاحب الشرع ﷺ في تلقي أقواله وأفعاله بالقبول، فينبغي أن يكون حريصاً على فهم أسراره، فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع ﷺ فعله، وفعله لا بد وأن يكون لسرٍ فيه، فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال، فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاءً للعلم، ولا يكون عالماً. ولذلك كان يقال: فلان من أوعية العلم، فلا يسمى عالماً إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحِكَم والأسرار. .

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله ﷺ»[2].

وهكذا على العالم أن يكون متبعاً للرسول ﷺ معملاً عقله غير مقلد لأحد. . وبهذا يصبح عالماً.

وإذن فينبغي للعالم أن يعرف الحق، وبه يعرف الرجال، وإلى

(١) المقصود بالتقليد هنا: الاتباع، كما سيتضح من تتمة النص.

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٧٨.

هذا يوجهه الغزالي:

«فاعلم أن من عرف الحق بالرجال، حار في متاهات الضلال، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق»[1].

ويتحدث الغزالي عن الحجب التي تحول دون الفهم فيذكر منها التقليد، فيقول:

«ومنها: أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد، وجمد عليه، وثبت في نفسه التعصب له، بمجرد الاتباع للمسموع، من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة.

فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده، فصار نظره موقوفاً على مسموعه، فإن لمع برق على بُعد، وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه، حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال: كيف يخطر هذا ببالك، وهو خلاف معتقد آبائك، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه، ويحترز عن مثله. .»[2].

والمقلد ـ في رأي الغزالي ـ إنسان أعمى، لا فائدة ترجى منه، ومحاولة إصلاحه إضاعة للوقت، ولذلك نصح تلميذاً له فقال:

«فخاطب نفسك وصاحبك، وطالبه بحد الكفر، فإن زعم أن حد الكفر ما يخالف مذهب الأشعري، أو مذهب المعتزلي، أو مذهب الحنبلي، أو غيرهم، فاعلم أنه غـرٌّ بليد، قد قيده التقليد، فهو أعمى من العميان، فلا تضيِّع بإصلاحه الزمان، وناهيك حجة في إفحامه مقابلة دعواه بدعوى خصومه، إذ لا يجد

(١) إحياء علوم الدين ١/ ٢٣،

(٢) إحياء علوم الدين ١/ ٢٨٤.

بين نفسه وبين سائر المقلدين المخالفين له فرقاً وفصلاً..»[1]..

وإذا كان المقلد أعمى، فطريقة التعامل معه أن يُسْكَت عنه، لأنه ليس من أهل النظر. قال:

«وشرط المقلِّد أن يسكت، ويُسكَت عنه، لأنه قاصر عن سلوك طريق الحجاج، ولو كان أهلاً له كان متبَّعاً لا تابعاً، وإماماً لا مأموماً، فإن خاض المقلد في المحاجة، فذلك منه فضول، والمشتغل به صار كضارب في حديد بارد، وطالب لصلاح الفاسد، وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر»[2].

ثم هناك خطر على المقلد من حيث الاعتقاد، إذا وصل إلى حالة من الجمود على تقليد واحد بعينه، لأنه ـ في هذه الحالة ـ يجعله في منزلة النبي. وهذا أمر تخشى عاقبته..

والخطر الأشد أن يتجاوز التقليد قضية التقليد في الأحكام إلى التقليد في الدليل أيضاً. ولنستمع إلى ما يقوله الإمام:

«ولعلك إن أنصفت، علمت أن من جعل الحق وقفاً على واحد من النظار بعينه، فهو إلى الكفر والتناقض أقرب:

أما الكفر، فلأنه نزله منزلة النبي المعصوم من الزلل، الذي لا يثبت الإيمان إلا بموافقته، ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته.

وأما التناقض، فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر وأن لا ترى في نظرك إلا ما رأيت، وكل ما رأيته حجة.. وأي فرق بين

(١) فيصل التفرقة ص ٣٩. منشورات دار الحكمة دمشق.
(٢) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، للإمام الغزالي ص ٤٣.

من يقول: قلدني في مذهبي، وبين من يقول: قلدني في مذهبي ودليلي جميعاً.. وهل هذا إلا التناقض»[1].

فالنظر ليس حفظ الدليل، وإنما هو البحث وإعمال الفكر للوصول إلى الدليل الذي به تكون قناعة العقل.

وبهذا المنطق يدعو الإمام الغزالي إلى تحرر العلماء من رقِّ التقليد، وذلك بإعمال عقولهم، وعندها يمكنهم أن يؤدوا دورهم في أداء واجبهم.

ولعل الدافع للغزالي إلى هذا الموقف من التقليد، إنما كان بفعل ما رآه من جمود علماء عصره على مذاهب أئمتهم ـ سواء أكان ذلك في الفقه أو الاعتقاد ـ وتعطيل عقولهم، بحيث لا يخالفونهم حتى ولو كان الدليل مؤيداً لغير ما ذهبوا إليه.

الالتزام بالكتاب والسنة:

إذا كان الغزالي قد دعا إلى نبذ التقليد، فذلك ناتج عن دعوته الملحة إلى الرجوع إلى النبع الصافي والمصدر الأصيل، الذي لم تشبه الكدورات. إنه الكتاب والسنة.

ودعوته إلى التزام الكتاب والسنة، كانت هي اللازمة التي يكررها دائماً، في كل بحوثه وفي كل كتبه، صغيرها وكبيرها. ولسنا بحاجة إلى الإكثار من إيراد النصوص دلالة على ذلك، ففي الرجوع إلى أي من كتبه ما يغني عن ذلك.

(١) المصدر السابق ص ٤٤.

ولذا فإني أكتفي بإيراد نماذج قليلة تكون مثالاً بين يدي القارىء الكريم:

قال في رسالته «أيها الولد»: «اعلم أن الطاعة والعبادة، متابعة الشرع في الأوامر والنواهي، بالقول والفعل. يعني: كل ما تقول وتفعل، وتترك قوله وفعله، يكون باقتداء الشرع. .».

وقال: «أيها الولد: ينبغي لك أن يكون قولك وفعلك موافقاً للشرع، إذ العلم والعمل بلا اقتداء بالشرع ضلالة. .».

ويقول في «ميزان العمل»: «اعلم أن سالك سبيل الله تعالى قليل، والمدعي فيه كثير، ونحن نعرفك علامتين له، العلامة الأولى: أن تكون جميع أفعاله الاختيارية موزونة بميزان الشرع، موقوفة على حد توقيفاته، إيراداً وإصداراً، وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك هذا السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها. .»[1].

والإحياء مليء بأمثال هذه النصوص.

الالتزام بمنهج السلف:

ويؤكد الغزالي على الحرص على معرفة سيرة الصحابة والتزام نهجهم: فتقليد الصحابة رضي الله عنهم إنما كان «من حيث إن فعلهم يدل على سماعهم من رسول الله ﷺ»[2].

فالمقلد لهم إنما هو ـ في الحقيقة ـ متبع للرسول ﷺ.

وبهذا كان للصحابة ميزة على غيرهم من الناس، فالغزالي ينصح من أراد التقليد أن يلتزم بهم فيقول:

(١) عن كتاب «الغزالي» للشرباصي ص ١٦٤.

(٢) إحياء علوم الدين ١/٧٨.

«وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس، فلا تغفل عن الصحابة وعلو منصبهم، فقد أجمع على تقدمهم، وأنهم لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم. .»[1].

ولذا ينبغي أن يكون الصحابة هم المقياس الذي يقاس بهم العلماء، فمن كان أشبه بهم فهو الأقرب إلى منهج الحق وطريق السلف:

«واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأقربهم إلى الحق، أشبههم بالصحابة، وأعرفهم بطريق السلف، فمنهم أخذ الدين. .»[2].

ويتأسف الغزالي على فقدان علم السلف بين الناس، ولذلك ـ وبعد أن عرَّف بالعلم المحمود والعلم المذموم ـ يقول:

«وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتقتدي بالسلف، أو تتدلى بحبل الغرور وتتشبه بالخلف، فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث»[3].

وإذا كان الأمر كذلك فينبغي عدم الاغترار بما أُحدِث ولو أجمع عليه الناس، وينبغي البحث عما كان عليه الصحابة. وتلك صفة من صفات علماء الآخرة:

«ومنها ـ صفات علماء الآخرة ـ أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور، وإن اتفق عليها الجمهور، فلا يغرَّنه إطباق الخلق على ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم. وليكن

(١) المصدر السابق ١/٢٣.

(٢) المصدر السابق ١/٨٠.

(٣) المصدر السابق ١/٣٨.

حريصاً على التفتيش على أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم..»[1].

ويؤكد الغزالي على هذا الأمر، لما يترتب عليه من انحراف في الأمة، وتطابق أكثر الناس على أمر لا يعني صوابه، ويبرهن على ذلك ببرهان واقعي، وهو أن صنعة الكلام التي تواضع الناس عليها.. لم تكن في السلف، فيقول:

«..ودع عنك ما تطابق أكثر الناس عليه، وعلى تضخيمه وتعظيمه، لأسباب ودواع يطول تفصيلها، فلقد قبض رسول الله ﷺ عن آلاف من الصحابة رضي الله عنهم، كلهم علماء بالله، أثنى عليهم رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام..»[2].

هكذا ارتفع صوت الغزالي عالياً بالرجوع إلى منهج السلف، ولعله مما زاد في صوته ارتفاعاً ما رآه من إكباب علماء عصره على التقليد وعدم تزحزحهم عنه وتعطيل فكرهم وعقلهم، وحتى وصل الأمر: أن أصبح كل فريق يكفر من يخالفه.. وتلك ثلمة في الدين كبيرة.

ولقد استمر الغزالي على منهجه هذا، حتى بعد تصوفه، فهو يؤكد التزامه بالكتاب والسنة، وأنه في تصوفه يقتفي أثر الجنيد والحارث المحاسبي وأمثالهم ممن التزم بالسنة ولم يقبل ما خالفها.

ولعله هنا ـ بعد تصوفه ـ هو أكثر تمسكاً بالسنة ومنهج السلف، لما رأى من شدة انحراف مشايخ الصوفية، بل قد رأينا ـ كما سبق ـ أنه لم يجد في عصره من هو أهل ليكون شيخاً.. ولذلك

(١) المصدر السابق ١/٧٩.
(٢) إحياء علوم الدين ١/٢٣.

ينصح المريد بالاعتماد على ما كتبه له في الإحياء بسبب ذلك.

إن هذه الصيحة التي دعا فيها الغزالي إلى إعمال العقل، ونبذ التقليد، والتزام منهج السلف، هي حلقة من سلسلة صيحات دوى بها المجتمع الإسلامي من قِبَل رجال الإصلاح في كل عصر.

فإذا كانت صيحة الغزالي في أواخر القرن الخامس الهجري، فقد كانت صيحة الإمام ابن حزم في مطلع ذاك القرن، وهي دعوة إلى المبادىء نفسها.. وجاء على أثرهما غيرهما ممن حمل لواء هذه الدعوة حتى كان دور ابن تيمية وابن القيم..

الإصلاح الفكري العام:

كانت دعوة الغزالي تلك موجهة إلى علماء المسلمين، ليصلحوا من أنفسهم فكراً وسلوكاً، وهي دعوة في الميدان الخاص.

أما في الميدان العام، حيث كانت الفلسفة والباطنية تسرحان وترتعان، دون رقيب أو حسيب، فقد رأينا كيف شمر الغزالي عن ساعد الجد، وتصدى لهما ـ دون أن ينتظر مساعدة من أحد ـ حتى رد الفلسفة إلى خنادق الدفاع بعد أن كانت في موقع الهجوم، وعزلها عن جندها الذي كانت تعتمد عليه من علوم الرياضيات والطبيعيات والمنطق.. حتى أبقاها وحيدة بغير سلاح.

وقد عرَّض نفسه للخطر وهو يؤدي دوره في فضح تعاليم الباطنية..

* * *

كان ذلك عرضاً موجزاً لمنهج الغزالي وعمله في الإصلاح

الفكري للأمة، نلاحظ فيه التمسك الشديد بمنهج السلف مع احترام العقل والإبقاء على فاعليته ضمن هذا الإطار.

ومن المؤسف أن أكثر الذين كتبوا عن حجة الإسلام أغفلوا هذا الجانب. إما عمداً وإما جهلاً.

والذين تعمدوا ذلك: أرادوا الحط من شأنه، فتغافلوا عن ذلك. وأما الذين جهلوا ذلك، فربما كان سببه ما عرفوا من التزام الإمام بالتصوف، وقد استقر في ذهنهم أن التصوف ومنهج السلف لا يجتمعان، كما استقر في أذهان كثير من الناس أن العلوم العقلية والعلوم الشرعية على طرفي نقيض، وأن الحقيقة والشريعة لا يمكن اجتماعهما..

وكلها مفاهيم بعيدة عن الواقع، فاسدة..، وليس من مهمة البحث مناقشة ذلك. ولكنه مما يجب تأكيده: أن الغزالي في كل النصوص التي نقلناها عنه ـ وغيرها كثير كثير ـ يؤكد على هذا الخط، وهي من الجزء الأول ـ فقط ـ من إحياء علوم الدين، وهو الكتاب الذي كتبه بعد تصوفه.. ولو ذهبنا نجمع النصوص التي دعا فيها إلى التزام منهج السلف، لجمعنا منها ما يكوِّن موضوعاً كاملاً.

وأما الذين لا يستطيعون تصور اجتماع منهج السلف والتصوف معاً في سلوك وفكر واحد، في آنٍ واحد، فإني أحيلهم إلى كتاب «الاستقامة» لابن تيمية ـ رحمه الله ـ حيث بين ذلك[1]، وإلى كتاب «طريق الهجرتين» للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى.

(١) انظر كتاب الاستقامة ١/٨١ وما بعدها.

الفَصْلُ الثَّانِي
العُلَمَاءُ أدَاةُ الإِصْلَاح

مكانة العلم:

رأينا في فصل سابق كيف آل اسم «العلماء» إلى الذين أتقنوا فنَّ الخلافيات في المناظرات، وكيف كان ذلك بباعث تحقيق رغبة الأمراء والحكام..[1].

وكان لهذا الأمر نتائجه الوخيمة التي دفعت الغزالي إلى إعمال النظر بشأن العلماء، والعلماء ـ في نظر الغزالي ـ هم أداة الإصلاح الأولى في المجتمع، فهم ورثة الأنبياء، ولذا كان عملهم أشرف الأعمال، إذ هو إفادة العلم، وتهذيب النفوس عن الأخلاق المذمومة المهلكة، وإرشادهم إلى الأخلاق المحمودة المسعدة، وهو المراد بـ «التعليم».

وإنما جاء شرف هذه المهنة من شرف المحل الذي تتعامل معه، وهو قلوب البشر ونفوسهم، فأشرف موجود على الأرض جنس الإنسان، وأشرف جزء من الإنسان قلبه.

(١) انظر الفصل الثاني من الباب الثاني من هذا الكتاب، تحت عنوان «علماء المسلمين».

«والمعلم مشتغل بتكميله - أي القلب - وتطهيره، وسياقته إلى القرب من الله عز وجل. فتعليم العلم: منٍ وجهٍ عبادة لله تعالى، ومن وجهٍ خلافة لله تعالى، وهو من أجلِّ خلافة الله، فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم، الذي هو أخص صفاته، فهو كالخازن لأنفس خزائنه، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه، فأي رتبة أجلّ من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه، وبين خلقه في تقريبهم إلى الله زلفى، وسياقتهم إلى جنة المأوى»[1].

تلك هي نظرة الغزالي إلى مكانة العلماء. وقارنَ بين ما استقر في ذهنه عن هذه المكانة وبين الواقع، فإذا المسافة بينهما بعيدة والبون شاسع. فقد تغير كل شيء، حتى تناول هذا التغيير مدلولات الألفاظ نفسها. لقد تغير مفهوم لفظ «العالم» كما تغير مدلول هذا اللفظ.

وفي محاولة منه للإصلاح في هذا الميدان كان عليه:

- أن يعيد إلى الألفاظ مدلولاتها.

- وأن يضع المقاييس التي يعرف بها العالم ممن تزيا بزي العلم.

وهذا ما فعله:

مدلولات الألفاظ:

يرى الغزالي أن التحريف تناول أسماء العلوم، وذلك بتبديلها

(١) إحياء علوم الدين ١٣/١.

ونقلها - بالأغراض الفاسدة - إلى معان غير ما أراده السلف الصالح والقرن الأول. ونذكر نماذج من ذلك:

١ - الفقه:

فقد تصرفوا فيه بالتخصيص، لا بالنقل والتحويل. إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها. . فمن كان أشد تعمقاً فيها، وأكثر اشتغالاً بها، يقال: هو الأفقه.

ولقد كان اسم «الفقه» في العصر الأول مطلقاً على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال. . ويدلك عليه قوله تعالى: ﴿ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾[1]. وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه. دون تفريعات الطلاق والعتاق، واللعان، والسَّلَم والإجارة، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف، بل التجرد له على الدوام يقسي القلب، وينزع الخشية منه، كما هو مشاهد الآن من المتجردين له.

ولست أقول إن اسم «الفقه» لم يكن متناولاً للفتاوى في الأحكام الظاهرة، ولكن كان بطريق العموم والشمول، أو بطريق الاستتباع، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر[2].

ونعتقد أن تخصيص هذا اللفظ، وإزاحته عن دائرته الواسعة إلى دائرة صغيرة هو الذي دعا الإمام الغزالي إلى عدّ «الفقه» من

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

(٢) إحياء علوم الدين ٣٢/١ - ٣٣.

علوم الدنيا. فقال: «فإن قلت: لم ألحقت الفقه بعلم الدنيا؟».

وكان من جملة جواب الغزالي قوله: «.. فالفقيه هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا..»[1].

ونعتقد أيضاً: أن هذا التخصيص، كان مساعداً إلى حد كبير على إطلاق اسم «التصوف» على الجانب الذي انحسر عنه اسم «الفقه» إذ كان لا بد من مصطلح يكون عنواناً لهذا الجانب حتى يعرف به.

٢ ـ العلم:

وقد كان يطلق على العلم بالله تعالى، وبآياته وبأفعاله في عباده وخلقه، حتى إنه لما مات عمر رضي الله عنه، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لقد مات تسعة أعشار العلم» فعرَّفه بالألف واللام، ثم فسره بالعلم بالله سبحانه وتعالى.

وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص، حتى شهروه في الأكثر بمن يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها.. ومن لا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء، ولا يعدونه في زمرة أهل العلم[2].

٣ ـ التوحيد:

وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام، ومعرفة طريق

(١) إحياء علوم الدين ١/١٧.
(٢) إحياء علوم الدين ١/٣٣.

المجادلة.. والقدرة على التشدق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات.. وسمي المتكلمون العلماء بالتوحيد.

وقد كان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر، لا يفهمه أكثر المتكلمين، وإن فهموه لم يتصفوا به، وهو: أن يرى الأمور كلها من الله عز جل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط، فلا يرى الخير والشر كله إلا منه جل جلاله[1].

وهكذا بيَّن الغزالي ما طرأ على هذه الألفاظ من تغير في المعنى، في محاولة لبيان الأغلاط الناتجة عن ذلك.

صفات العالم

إن تقلص معنى لفظ «الفقه» و «العلم».. سبقه تقلص في شخصيات الذين يحملون هذه الألقاب.. حتى أصبحت فضفاضة.. وفي بعض الأوقات في غير مكانها.. الأمر الذي دعا الغزالي إلى بيان صفات علماء الآخرة حتى لا يغتر جاهل بعلماء الدنيا. فالعلماء عنده فريقان:

- علماء الدنيا: وهم علماء السوء.
- وعلماء الآخرة.

وقد تحدث عن النوع الأول فقال: «.. فأدلة الطريق هم العلماء، الذين هم ورثة الأنبياء، وقد شغر منهم الزمان، ولم يبق إلا المترسمون. وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان، واستغواهم الطغيان، وأصبح كل واحد بعاجل حظه مشغوفاً، فصار يرى

(١) المصدر السابق ١/٣٣.

المعروف منكراً والمنكر معروفاً، حتى ظل علم الدين مندرساً..»[1].

وقال: «ونعني بعلماء الدنيا: علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا، والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها»[2].

ثم أورد ما جاء من أحاديث تبين مصير علماء السوء في الآخرة.. ثم ذكر اثنتي عشرة صفة هي علامات علماء الآخرة، تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف..

وبهذا أوضح الطريق في كلام مسهب[3] لمن أراد أن يستقيم من العلماء عليه، وجعل له علامات وصوى يسترشد بها.

ولم يكتف الغزالي بذكر تلك الصفات التي تتناول في معظمها السلوك الظاهر للعالم من البعد عن طلب الدنيا بعلمه، والبعد عن السلاطين.. والتحرز عن المسارعة إلى الفتيا.. بل ذهب إلى ما هو أبعد من هذا، وهو مراقبة العالم نفسه بمحاولة محو الصفات المذمومة منها من كبر وحسد وغيرها..

والغزالي الذي كان واحداً من العلماء المترسمين في إحدى مراحل حياته، يعرف تماماً بحكم الخبرة ما يعتري العلماء من شعور التعالي على الخلق والاغترار بالعلم..

ولذا فهو حينما يتحدث عن هذا الموضوع يتحدث حديث الخبير العالم.. ولهذا لما جاء يتحدث عن الغرور.. كان

---

(١) المصدر السابق: مقدمة الكتاب.

(٢) إحياء علوم الدين ٥٨/١.

(٣) إحياء علوم الدين ٥٨/١ ـ ٨٢.

الصنف الأول الذي تحدث عنه: هو أهل العلم. ثم قال: والمغترون منهم فرق..

ثم ذهب يتحدث عن كل فرقة بتفصيل يتناول دقائق النفوس.. ونذكر بعض قوله:

«وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء، وطلب الرياسة والعلاء، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة..

فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله ﷺ «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[1].. فتعهدوا الأعمال، وما تعهدوا القلوب ـ والقلب هو الأصل ـ إذ لا ينجو إلا من أتى اللهَ بقلب سليم..»[2].

«وفرقة أخرى، علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك، وإنما يبتلى به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم.

ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة، وطلب العلو والشرف، قالوا: ما هذا كبر، وإنما هو طلب عز الدين، وإظهار شرف العلم..

---

(١) رواه مسلم برقم ٢٥٦٤.

(٢) إحياء علوم الدين ٣٨٩/٣ ـ ٣٩٠.

ونسي المغرور أن عدوَّه الذي حذره منه مولاه، هو الشيطان، وأنه يفرح بما يفعله، ويسخر به..»[1].

وبهذا الأسلوب ذهب الغزالي يتحدث عن فرق العلماء، ويتناول جانب الغرور عندها.

العلماء والسلاطين

ما من شك في أن لصلاح السلطان الأثر الكبير في صلاح رعيته، ولذلك يرى الغزالي أن فساد الرعية إنما كان بفساد الملوك.

وينبغي أن يكون للعلماء دورهم في توجيه الملوك، وهو من أعظم أعمالهم، التي يتقربون بها إلى الله تعالى، ومن هذا المنطلق كانت كلمة الحق عند سلطان جائر من أعظم أنواع الجهاد.

ولا يستطيع العالم أن يؤدي دوره في هذا الميدان إلا إذا ترفع على دنيا السلاطين وأموالهم، وعندها يمكن أن تسمع كلمته ويكون لها أثرها.

ويتأسف الغزالي لما آل إليه أمر العلماء في عصره فيقول: «وأما الآن، فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا.

ففساد الرعايا بفساد الملوك، وفساد الملوك بفساد العلماء،

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٩٠.

وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الأراذل، فكيف على الملوك والأكابر؟»[1].

وإذا كان العالم غير قادر على كلمة الحق عند السلاطين فإن الغزالي يقسم حال العالم في الدخول عليهم إلى ثلاث مراتب:

الأولى: وهي شرها: أن يدخل عليهم.

الثانية: وهي دونها: أن يدخلوا عليه.

الثالثة: وهي الأسلم: أن يعتزلهم، فلا يراهم ولا يرونه[2].

وقد بين الغزالي بلغة صريحة أن أموال السلاطين في عصره كلها حرام أو أكثرها، وفصل الأمر في ذلك، ولذلك فالأخذ منهم ـ في الغالب ـ أخذ من حرام[3].

الغزالي والسلاطين

وقد كان الغزالي في بيانه هذا يمثل العالم الجريء الذي لا يخشى بقول الحق لومة لائم. وقد بين لنا الأستاذ الندوي ذلك بقوله:

«لقد كانت الحكومات في عصر الغزالي حكومات شخصية مستبدة، وكان نقد السلاطين على سياستهم وأموالهم وتصرفاتهم مجازفة بالحياة، ومغامرة قد تؤدي إلى الحبس والإهانة والعقوبات المؤلمة، وكثيراً ما تؤدي إلى القتل والنفي، وكان الذي يرفض وظيفة أو منصباً يقدمه السلطان، أو يرفض عطية سلطانية، يعتبر في أكثر الأحيان خارجاً على الحكومة غير وفي

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣٥٧.
(٢) المرجع السابق ٢/١٤٢.
(٣) انظر المرجع السابق ٢/١٣٥ ـ ١٤٢.

لها. ولكن كل ذلك مما كان يعمله الغزالي ـ وهو العالم الواعي المطلع ـ لم يمنعه من إبداء رأيه الصريح في أموال الملوك والسلاطين في عصره وعن نقد سياستهم المالية»[1].

والغزالي إذ يهيب بالعلماء أن يقولوا كلمة الحق، لم يكن من الذين يقولون ما لا يفعلون، فقد باشر ذلك بنفسه، كلما كان ذلك ضرورياً.

فقد قال للسلطان سنجر السلجوقي الذي كان يحكم خراسان من أقصاها إلى أقصاها: «أسفاً! إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية».

وكتب إلى أخيه الأكبر محمد بن ملك شاه ـ وكان أكبر ملوك عصره ـ رسالة ذكره فيها بمسؤوليته وحذره من عقاب الله وغضبه، ولفت نظره إلى إصلاح مملكته.

وكان الغزالي يعرف أن الوزراء هم الذين يملكون زمام الملك فكثرت رسائله لهم، في جرأة وصراحة ولفت نظر إلى فساد الأوضاع. ورسائله الفارسية التي وجهها في هذا المعنى إلى الوزراء مثال الشجاعة والصدع بالحق. ومنها رسالة إلى فخر الملك يقول فيها:

«اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خراباً بسبب المجاعات والظلم، ولما بلغ الناس توجهك من اسفرائن ودامغان خافوا، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب، واعتذر الظالمون إلى

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص ٢٣٥.

المظلومين واستسمحوهم، لما كانوا يتوقعون من إنصاف منك، واستطلاع للأحوال، ونشاط في الإصلاح، أما وقد وصلت إلى طوس، ولم ير الناس شيئاً فقد زال الخوف، وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والاحتكار، وتشجع الظالمون، وكل من يخبرك من أخبار هذا البلد بخلاف ذلك، فاعلم أنه عدو دينك.

واعلم أن دعاء أهل طوس بالخير والشر مجرب، وقد نصحت للعميد كثيراً، ولكنه لم يقبل النصيحة، وأصبح عبرة للعالمين ونكالاً للآخرين.

اعلم يا فخر الملك، أن هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية، لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والأمراء، فاقدرها قدرها، فإنك لا تسمعها من غيري وكل من يقول غير ذلك فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق»

ومن رسالته إلى مجير الدين نجتزىء الجمل التالية:

«.. لقد بلغت المدية العظم، وبلغ السيل الزُّبى، وكاد المسلمون يستأصلون. وإن ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد ـ أمانة من الملك ـ أخذوا أضعافها من الرعية، وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس، ولم يصل منها شيء إلى السلطان»[1].

وهكذا كان الإمام الغزالي مشجعاً للعلماء على أداء دورهم بقوله، كما كان قدوة لهم بفعله..

(١) المصدر السابق ص ٢٣٧ ـ ٢٣٩ عن رسائل الإمام الغزالي الفارسية.

الغاية:

كان الغزالي يرى في العلماء الموجه الأول للأمة، ووسيلة الإصلاح الأولى لها، وما لم يكن الصلاح قائماً في نفوسهم ـ ظاهراً وباطناً ـ فكيف يمكنهم إصلاح غيرهم، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولهذا ركز تركيزاً شديداً على بيان الزيف من العلماء، والزيف فيهم، لعله بهذا البيان يوقظ غافلاً، أو ينبه ساهياً، أو يرد شارداً.. والذكرى تنفع المؤمنين.

كان حريصاً أن يوقظ في النفوس روح الإخلاص.. وتلك هي الغاية التي يسعى إليها وبغير الإخلاص لا تكون النجاة..

انظر معي قوله وهو يتحدث عن الصفة الأولى للعالم ـ وهي أن لا يطلب الدنيا بعلمه ـ وهو يذكر بأقوال علماء السلف:

«وكان يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله يقول لعلماء الدنيا:

يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم طاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية وأوانيكم فرعونية، ومآتمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟

قال الشاعر:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقال الآخر:

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

وقال سهل ـ رحمه الله ـ: العلم كله دنيا، والآخرة منه العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص.

وقال: الناس كلهم موتى إلا العلماء، والعلماء سكارى إلا العاملين، والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين، والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به»[(١)].

رحم الله الغزالي فقد كانت كلماته فاعلة في النفوس.. وما خرج من القلب فإنه يؤثر في القلوب.

قضية «التكفير»:

ويحسن بنا في نهاية هذا الفصل أن نعرج على مسألة مهمة، ذات صلة وثيقة بهذا البحث، وهي أن بعض العلماء المقلدين، قد يسارع في تكفير غيره، إذا لم يوافقه أو يوافق شيخه فيما ذهب إليه.

ولأهمية هذه القضية وخطرها، نجد الغزالي يؤلف من أجلها كتاباً خاصاً، هو «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة» يبين فيه حد الكفر، حتى لا يحصل الاشتباه.

يقول: «لعلك تشتهي أن تعرف حد الكفر.. فاعلم أن شرح ذلك طويل، ومدركه غامض.. ولكني أعطيك علامة صحيحة، فتطردها وتعكسها، لتتخذها مطمح نظرك، وترعوي بسببها عن تكفير الفرق، وتطويل اللسان في أهل الإسلام.. وإن اختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقولة: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»

(١) إحياء علوم الدين ٦١/١.

صادقين بها غير مناقضين لها، فأقول:

الكفر هو تكذيب الرسول ﷺ في شيء مما جاء به. والإيمان تصديقه في جميع ما جاء به. فاليهودي والنصراني كافران لتكذيبهما للرسول ﷺ.. وكل مكذب فهو كافر، فهذه هي العلامة المطردة المنعكسة»[1].

ولكن مع بيان هذا الحد: «فالحنبلي يكفر الأشعري زاعماً أنه كذب الرسول في إثبات الفوق لله تعالى. والأشعري يكفره زاعماً أنه مشبِّه.. والأشعري يكفر المعتزلي زاعماً أنه كذب الرسول في جواز رؤية الله تعالى.. والمعتزلي يكفر الأشعري زاعماً أن إثبات الصفات تكثير للقدماء، وتكذيب للرسول في التوحيد..»

وإزاء هذا الواقع المر كان لا بدَّ من بيان حدِّ التكذيب والتصديق.. فقال:

«ولا ينجيك من هذه الورطة إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق، وحقيقتهما.. فينكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها في تكفير بعضها بعضاً..».

ثم بين الغزالي بكلام مفصل حقيقة التصديق وأنها الاعتراف بوجود ما أخبر الرسول ﷺ عن وجوده. ثم بين أن للوجود خمس مراتب:

١ ـ الوجود الذاتي.

٢ ـ الوجود الحسي.

٣ ـ الوجود الخيالي.

٤ ـ الوجود العقلي.

٥ ـ الوجود الشبهي.

---

(١) فيصل التفرقة، للغزالي ص ٤٥.

ثم فصل القول في أنواع الوجود وجاء بالأمثلة عليها.. ثم خلص إلى القول التالي:

«اعلم أن شرح ما يكفر به، وما لا يكفر به، يستدعي تفصيلاً طويلاً، يفتقر إلى كل المقالات والمذاهب، وذكر شبهة كل واحد.. ودليله.. ووجه تأويله، وذلك لا يحويه مجلدات. ولا تتسع لذلك أوقاتي، فاقنع الآن بوصية وقانون:

أما الوصية: فأن تكفَّ لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك، ما داموا قائلين «لا إله إلا الله محمد رسول الله» غير مناقضين لها.. فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطر فيه.

وأما القانون: فهو أن تعلم أن النظريات قسمان: قسم يتعلق بأصول القواعد. وقسم يتعلق بالفروع.

وأصول الإيمان ثلاثة: الإيمان بالله وبرسوله، وباليوم الآخر. وما عداه فروع.

واعلم أنه لا تكفير في الفروع أصلاً، إلا في مسألة واحدة، وهي أن ينكر أصلاً دينياً، علم من الرسول ﷺ بالتواتر..

لكن في بعضها تخطئة، كما في الفقهيات. وفي بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة..»[1].

وهكذا يعالج الإمام الغزالي هذه القضية في كتاب كامل كما قلنا، لما يرى من خطرها، وفي هذا ما فيه من الإصلاح، وإزالة الحواجز بين الفرق الإسلامية، مما يجعل إمكان الوصول إلى الصواب أقرب.

---

(١) فيصل التفرقة ٤٩ ـ ٨٦.

الفصل الثالث

تجديد الفقه

رأينا في فصل سابق كيف أنكر الغزالي - أيما إنكار - القول بالتفريق بين الشريعة والحقيقة[1]، كما رأينا أيضاً كيف استطاع أن يضيق شقة الخلاف بين الفقهاء وبين المتصوفة[2]، بل نستطيع القول بأنه جمع بطريقة مبتكرة بين الفقه والتصوف.

والغزالي فقيه قبل أن يكون صوفياً، وكتب كتباً عديدة في الفقه، منها المختصر، ومنها المتوسط، ومنها الموسع.. ولكن كتابته تلك ظلت كتابة فقهية بالأسلوب التقليدي المعروف في كتب الفقه.

ثم كتب الفقه في (إحياء علوم الدين) فإذا بنا أمام أسلوب جديد، ولغة جذابة، نقرأ من خلالها الفقه والتصوف في آنٍ واحد.

فالصلاة ليست مجرد ركوع وسجود.. ولكنها أيضاً خشوع

(١) انظر الفصل الثالث من الباب الثالث من هذا الكتاب.
(٢) انظر الفصل الرابع من الباب الثالث من هذا الكتاب.

ووقوف بين يدي الله تعالى. والمعاملات ليست مجرد بيع وشراء وربح.. ولكنها قضاء لحوائج المسلمين.. ونصح لهم..

وبهذا يخطو الغزالي خطوة واسعة في كتابة الفقه بأسلوب جديد، يستشعر القارىء معه النظرة الكلية للفقه الإسلامي، تلك النظرة التي تتعامل مع الإنسان كله: جسماً وروحاً، عقلاً وفكراً.

ونسوق بين يدي القارىء نموذجين من هذا الفقه الجديد، أحدهما من قسم العبادات والثاني من قسم المعاملات.

مثال العبادات:

نذكر في هذا المثال ما كتبه المصنف تحت عنوان «كتاب أسرار الطهارة» ملخصاً بما يتناسب مع المقام: قال المصنف:

أما بعد: فقد قال النبي ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور»[1]. وقال تعالى: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطَّهِّرين﴾[2]. وقال النبي ﷺ: «الطهور نصف الإيمان»[3]. وقال تعالى: ﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم﴾[4].

فتفطن ذوو البصائر بهذه الظواهر، أن أهم الأمور تطهير السرائر، إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «الطهور نصف الإيمان» عمارة الظاهر بالتنظيف، بإفاضة الماء وإلقائه، وتخريب

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال: هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن (كما قال الحافظ العراقي).
(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٨.
(٣) أخرجه الترمذي، وأخرجه مسلم بلفظ شطر (العراقي).
(٤) سورة المائدة، الآية ٦.

الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار. هيهات هيهات!!
والطهارة أربع مراتب:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة، والرذائل الممقوتة.

المرتبة الرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى، وهي طهارة الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ والصديقين.

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها.

فالغاية القصوى من عمل القلب، عمارته بالأخلاق المحمودة، والعقائد المشروعة، ولن يتصف بها ما لم ينظف عن نقائضها من العقائد الفاسدة، والرذائل الممقوتة. فتطهيره أحد الشطرين، وهو الشطر الأول، الذي هو شرط في الثاني، فكان «الطهور شطر الإيمان» بهذا المعنى.

وكذلك تطهير الجوارح عن المناهي، أحد الشطرين، وهو الشطر الأول، الذي هو شرط في الثاني، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول، وعمارتها بالطاعات: الشطر الثاني.

فهذه مقامات الإيمان، ولكل مقام طبقة، ولن ينال العبد الطبقة العالية، إلا أن يجاوز الطبقة السافلة.

فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة، وعمارته

بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود. ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات..

وكلما عزَّ المطلوب وشرف، صعب مسلكه وطال طريقه، وكثرت عقباته، فلا تظن أن هذا الأمر يدرك وينال بالهوينى.

نعم، من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات، لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة، التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة، بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يمعن فيها، ويستقصي في مجاريها، ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء، وغسل الثياب، وتنظيف الظاهر، وطلب المياه الجارية الكثيرة، ظناً منه ـ بحكم الوسوسة وتخيل العقل ـ أن الطهارة المطلوبة الشريفة، هي هذه فقط، وجهلاً منه بسيرة الأولين، واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب، وتساهلهم في أمر الظاهر، حتى إن عمر ـ رضي الله عنه ـ مع علو منصبه توضأ من ماء في جرة نصرانية..

وقد انتهت النوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة.. فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر.. والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل.. ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه، ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر، أو صلى على الأرض، أو على بواري المسجد من غير سجادة مفروشة.. لشددوا عليه النكير..

وإذا عرفت هذه المقدمة، واستبنت أن الطهارة لها أربع

مراتب، فاعلم أنا في هذا الكتاب لا نتعرض ـ قصداً ـ إلا للظواهر، فنقول:

طهارة الظاهر: ثلاثة أقسام:

ـ طهارة عن الخبث.

ـ وطهارة عن الحدث.

ـ وطهارة عن فضلات البدن..[1].

مثال المعاملات:

تحدث الغزالي في (كتاب آداب الكسب والمعاش) ـ بعد مقدمة عن فضل الكسب والحث عليه ـ عن العقد الذي يكون به الاكتساب، وأنه ينبغي أن يكون جامعاً لأربعة أمور:

ـ الصحة.

ـ والعدل.

ـ والإحسان.

ـ والشفقة على الدين.

ثم عقد لكل منها باباً خاصاً به.

● فتحدث عن صحة كل عقد من العقود على انفراد: من بيع وغيره.

● ثم تحدث بعد ذلك في باب آخر عن: بيان العدل واجتناب

(١) إحياء علوم الدين ١/١٢٥ ـ ١٢٨.

الظلم في المعاملة. وبين أن الظلم هو ما يستضرّ به الغير، وقسمه إلى قسمين:

ـ ما يعم ضرره: كالاحتكار وترويج الزيف من الدراهم..

ـ ما يخص ضرره المعامل: فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل، أن لا يضر بأخيه المسلم، والضابط الكلي فيه: أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه، فكل ما لو عومل به شق عليه وثقل على قلبه، فينبغي أن لا يعامل غيره به..

● ثم ذكر باباً في الإحسان في المعاملة، فكان مما قال فيه: أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً. والعدل: سبب النجاة فقط، وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال.

والإحسان: سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح. ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله. فكذا في معاملات الآخرة..

ثم ذكر رتبة الإحسان في المعاملة، وأنها تتحقق بأمور منها: احتمال الغبن، والمسامحة في الثمن: من حط أو إمهال، ومنها: حسن القضاء، ومنها إقالة من يستقيله..

● والأمر الأخير الذي ينبغي أن يراعيه التاجر هو الشفقة على دينه. فلا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعاً، وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا.. بل ينبغي للعاقل أن يشفق على نفسه، وذلك بحفظ رأس ماله، ورأس ماله: دينه وتجارته فيه. وإنما تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة أمور:

١ ـ حسن النية، فلينو بتجارته الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس، استغناءً بالحلال عنهم، واستعانة بما يكسبه على الدين، وقياماً بكفاية العيال ليكون من جملة المجاهدين، ولينو النصح للمسلمين..

٢ ـ أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات.. فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش.. فانتظام أمر الكل بتعاون الكل..

٣ ـ أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة، وأسواق الآخرة المساجد..

٤ ـ أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب..

٥ ـ ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته.. فإنه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب..[1].

تلك خلاصة موجزة لمثالين من فقه الغزالي في الإحياء، رأينا من خلالهما، أن:

ـ الوضوء، والغسل.. هي بعض الطهارة الواردة في حديث «الطهور شطر الإيمان» وأن الطهارة أعم وأشمل من أن تكون قاصرة على هذا الجانب.

ـ عقود المعاملات، ليس البحث فيها فقط هو مجرد صحة العقد، بل ذلك جانب من أربعة جوانب..

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٦١ ـ ٨٧.

ولا شك بأنا نشعر ـ ونحن نقرأ الفقه بهذا الأسلوب ـ أننا أمام فقه دبت فيه الحياة، حيث أخذت نصوص كثير من الأحاديث والآيات مكانها في مجال التطبيق العملي ولم تعد مجرد مواعظ هامشية، غير داخلة في صلب الموضوع.

نشعر بأنفسنا ـ ونحن مع هذا الفقه ـ أننا أمام نظرة كلية شاملة لهذا الدين، فالعمل الواحد يؤدي دوره على أصعدة كثيرة في آنٍ واحد.

فالتاجر بتجارته: ينبغي أن يجري عقود تجارته بعيداً عن الربا.. وما حرم الله.. وبهذا يكون مطبقاً للأوامر مجتنباً للنواهي..

وهو ينوي بعمله قضاء حاجات المسلمين..

وهو ينوي كفَّ نفسه وعياله عن الحاجة إلى غيره من الناس.

وهو في تعامله سهل في بيعه وشرائه، حسن القضاء والاقتضاء..

إنها قضية أكبر من أن تكون مجرد عمل مادي يقصد إلى الربح المادي وحسب..

* * *

وبهذا يتوضح ما ذكرناه، من أن الغزالي يرى أن الفقه والتصوف يسيران معاً المرحلة الأولى من الطريق، ثم يتوقف الفقه ـ في معناه الجديد بعد تقلصه ـ ويتابع التصوف طريقه.

وكما وسع الغزالي دائرة الفقه، أو بتعبير أدق: أعادها إلى الوضع الذي كانت عليه في زمن السلف..

فإنه كذلك قيد معاني السلوك والتربية بالمصطلحات الفقهية، وبالقواعد التي قررها الفقهاء، فكان في فعله ذلك توسيع آخر لدائرة الفقه بتطبيق قواعده في ميدان التربية..

واقرأ معي هذا الجزء من رسالته إلى ابن سلامة:

«أما الوعظ فلست أرى نفسي أهلاً له، لأن الوعظ «زكاة» نصابه «الاتعاظ» فمن لا نصاب له، كيف يخرج الزكاة»[1].

إنها القواعد الفقهية المقررة في وجوب الزكاة، ولكن الغزالي يوسع دائرة عملها حتى تشمل هذا الجانب البعيد، إنه ميدان الوعظ.

والغزالي إذ يفعل ذلك فإنما يطبق نصوص الشريعة المتعددة في هذا الميدان. مثل قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾[2] وقوله ﷺ: «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار، فيقولون: مالك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهى عن الشر وآتيه»[3].

إن الذي يتصدر للوعظ ينبغي أن يكون مطبقاً لما يأمر به، عاملاً به، حتى يكون كلامه مؤثراً.

وهنا يرى الغزالي أن نصاب الوعظ هو اتعاظ «الواعظ» في

(١) طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي ١١٢/٤.
(٢) سورة البقرة، الآية ٤٤.
(٣) متفق عليه.

نفسه أولاً، فإن كان كذلك، فعندها عليه أن يخرج الزكاة، وهي وعظ الآخرين، لأنه ملك النصاب.

* * *

تلك نماذج تبين مدى التزام الغزالي بالفقه في قواعده الأصيلة التي جرى عليها السلف، وقد برهن بذلك على ملكته الفقهية التي لا تبارى.

ولسنا مع الإمام ابن الجوزي في قوله: إن الإمام الغزالي وضع الإحياء على مذهب الصوفية وترك فيه قانون الفقه[1].

بل نقول: إنه وسع دائرة الفقه فجعله يتعامل مع نصوص الإسلام كلها في الموضوع الواحد. ولم يقبل أن يقف كما فعل الفقهاء التقليديون بوقوفهم عند ما اصطلح عليه باسم «آيات الأحكام» و «أحاديث الأحكام».

إن الأمر السلوكي والأخلاقي في نظر الإمام الغزالي «حكم» ولا ينبغي فصله عن غيره من الأحكام، وبهذا الاعتبار جاءت نظرته الفقهية الجديدة بفقه متكامل يبين الحلال والحرام دون أن

(١) المنتظم، لابن الجوزي ١٦٩/٩.
ومن المؤسف أن هذه الكلمة لابن الجوزي انتشرت لدى الذين كتبوا عن حياة الغزالي، انتشار النار في الهشيم، فأخذوها عنه دون تدبر ووعي، وخاصة أولئك الذين يحقدون على الغزالي.
وإذا كان الغزالي قد أخطأ في مسألة أو أكثر، فهل هناك فقيه لم يخطىء؟ وقد رأينا في فصل سابق كيف أخطأ ابن الجوزي في النقل عن الإحياء حيث أورد بعض النص دون بعضه الآخر.

يغفل حكم الأخلاق في القضية ـ محل البحث ـ من عدل وتسامح وإحسان.

وكم نتمنى لو أن الغزالي أخرج لنا كتاباً تناول فيه كل أبواب الفقه بهذا الأسلوب المتميز.

ومهما يكن من أمر، فقد وضع الغزالي منهجاً لكتابة الفقه، بحيث يتعامل مع كيان الإنسان كله وتلك خطوة على طريق الإصلاح قل نظيرها.

الفَصْل الرابع

فقه الأولويات

تمهيد:

ومن جوانب الإصلاح التي دعا إليها الغزالي: فقه «الأوْلى».

فقد رأى خطأً شائعاً بين الناس ـ العالم منهم وغير العالم ـ هو: فعل أمر، مع ترك أمر آخر هو أولى بالفعل منه.

ولإيضاح هذا الموضوع، لا بد من مقدمة نبين فيها قاعدة أصولية هي مرجع هذا الحكم.

مما هو معلوم في علم أصول الفقه: أن تكاليف الشريعة إنما ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق.

وهذه المقاصد تنقسم إلى ثلاثة أقسام مرتبة بحسب أهميتها:

ـ الضروريات.

ـ الحاجيات.

ـ التحسينات.

فالضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا. وفي فقدها فوت النجاة.

والحاجيات: هي المفتقر إليها من حيث التوسعة ورفع الحرج.. وهي جارية في العبادات والعادات والمعاملات.

والتحسينات: معناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات وتجنب المدنسات. وهي جارية أيضاً في العبادات والعادات والمعاملات.

وكل قسم من هذه الأقسام، هو كالمكمل والمتمم لما سبقه.

ويقرب لنا الإمام الغزالي هذه القاعدة بأسلوبه البليغ الذي يعتمد على ضرب الأمثلة، إذ هي أكثر بياناً من القواعد فيقول:

«ومثال الضروري من الأعضاء: الرأس والقلب والكبد.

ومثال المحتاج إليه: العين واليد والرجل.

ومثال الزينة: استقواس الحاجبين، وحمرة الشفتين، وتلون العينين، إلى غير ذلك، مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة».

ومن هذا المثال يتبين لنا أن الإنسان لا يستطيع العيش أصلاً بدون «الرأس» و «القلب»، فهو من الضروريات، ويستطيع العيش بغير العين واليد، ولكن مع المشقة والحرج. فهما من الحاجيات، ويستطيع العيش بغير مشقة أو ضيق مع عدم حمرة الشفتين. وهذه هي التحسينات.

ويقول في مثال آخر زيادة في الإيضاح:

«ومثال الضروري من النعم ـ الخارجة عن بدن الإنسان ـ: الماء والغذاء.

ومثال الحاجة: الدواء واللحم والفواكه.

ومثال المزايا والزوائد: خضرة الأشجار، وحسن الأشكال.. مما لا ينخرم بعدمها حاجة ولا ضرورة»[(١)].

وبناءً على ما سبق: فإن الأوامر والتكاليف الشرعية مرتبة هذا الترتيب، بحسب متعلقها من الضروريات، أو الحاجيات، أو التحسينات. وكل قسم مقدم على الآخر. وهذا مأخوذ من قول أبي بكر في وصيته لعمر، رضي الله عنهما «إن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدى الفريضة»[(٢)].

فإذا كنت في وقت لا يتسع للفريضة والنافلة معاً. فتقديم الفريضة هو الواجب الذي لا يقبل غيره.

وهكذا فالواجبات نفسها ليست في مستوى واحد فبعضها مقدم على بعض، والنوافل ليست في مستوى واحد، وبعضها مقدم على بعض..

ولا بد لكل مسلم أن يكون على دراية بالأولى في التقديم فيما يفعل، وما يترك، وهذا ما نسميه «فقه الأولويات».

* * *

ونترك ـ بعد هذه المقدمة ـ الكلام للغزالي يوضح لنا هذا الموضوع بلغته وأمثلته، التي تناول بها جوانبه المتعددة، فقال:

«وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور. بل قد يتعين

---

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٠٣.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية، كما قال في شرح الإحياء ٨/٦١٦.

في الإنسان فرضان: أحدهما يفوت والآخر لا يفوت، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته، فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً.

ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى؛ فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض:

كتقديم الفرائض كلها على النوافل.

وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية.

وتقديم فرض كفاية لا قائم به، على ما قام به غيره.

وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه.

وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت.

وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ سئل رسول الله ﷺ فقيل له: من أبر يا رسول الله؟ قال «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك» قال ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أباك» قال: ثم من؟ قال: «أدناك فأدناك»[1].

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأتقى.

وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج، وهو مغرور، بل ينبغي أن يقدم حقهما على الحج. وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه..

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه. (الحافظ العراقي).

ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور، وهذا غرور في غاية الغموض، لأن المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية، حيث ترك بها طاعة واجبة، هي أهم منها..»[1].

* * *

والغزالي يؤكد على فقه هذه القاعدة، ويرى أن كثيراً من الخلل الاجتماعي ناتج عن عدم التعامل معها بشكل صحيح.

ولذلك يلفت النظر إليها عندما يرى الحاجة إلى ذلك، وفي مجالات الحياة المختلفة، ويحسن بنا أن نقف على بعض الأمثلة من تذكيره وتنبيهه:

مع العلماء:

● يتجه الإمام الغزالي إلى المتعلمين ناصحاً لهم بتقديم الأولى فيقول: «.. فكن أحد رجلين: إما مشغولاً بنفسك، وإما متفرغاً لغيرك بعد الفراغ من نفسك.

وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك.

فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك...

ولا تشتغل بفروض الكفاية، لا سيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مهلك نفسه ـ فيما به صلاح غيره ـ سفيه. فما أشد

---

(١) إحياء علوم الدين ٤٠٣/٣.

حماقة من دخلت الأفاعي تحت ثيابه، وهمَّت بقتله، وهو يطلب مذبة يدفع بها الذباب عن غيره..

وإن تفرغت من نفسك وتطهيرها.. فاشتغل بفروض الكفايات، وراع التدريج فيها..»[١].

● ويتحدث الغزالي عن العلماء الذين يقضون أوقاتهم في فرعيات الفقه وهم جاهلون بما هو ضروري لهم.. فيقول:

«ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني، حتى عن الإخلاص مثلاً، أو عن التوكل، أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه، مع أنه فرض عينه، الذي في إهماله هلاكه في الآخرة.

ولو سألته عن اللعان والظهار، والسبق والرمي، لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تخل البلد عمن يقوم بها..»[٢].

● ويعتب على العلماء الذين يدعون أنهم اشتغلوا بالفقه لأداء حق الله تعالى. والأمر ليس كذلك. قال:

«.. ويلبس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفطن يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية، لقدم عليه فرض العين. بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات.

فكم من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة، ولا يجوز

(١) المصدر نفسه ١/٣٩.
(٢) إحياء علوم الدين ١/٢١.

قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاترون على علم الفقه..

فليت شعري، كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفرض كفاية قد قام به جماعة، وإهمال ما لا قائم به؟»[١].

وهكذا يرى رحمه الله أن الاشتغال بالطب مقدم على الاشتغال بالفقه في بلد فيه فقهاء..

● ويرى أن ترك الفقهاء للدعوة إلى الله واشتغالهم في التفريعات.. من المنكر. والدعوة إلى الله تبدأ متدرجة من النفس.. إلى أن تصل إلى الناس جميعاً، يقول:

«فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها، بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلّم ذلك أهل بيته، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل محلته، ثم إلى أهل بلده.. وهكذا إلى أقصى العالم.

فإن قام به الأدنى، سقط عن الأبعد، وإلا حرج به كل قادر عليه، قريباً كان أو بعيداً. ولا يسقط الحرج ما دام يبقى على وجه الأرض جاهل بفرض من فروض دينه، وهو قادر على أن يسعى إليه بنفسه أو بغيره فيعلمه فرضه.

وهذا شغل شاغل، لمن يهمه أمر دينه، ويشغله عن تجزئة الأوقات في التفريعات النادرة، والتعمق في دقائق العلوم التي هي من فروض الكفايات.

(١) المصدر نفسه ١/٢١.

ولا يتقدم على هذا ـ أي أمر الدعوة ـ إلا فرض عين، أو فرض كفاية هو أهم منه»[1].

وهكذا يضع الإمام الغزالي العلماء أمام مسؤوليات وواجبات كثيرة قد أهملوها، مقابل اشتغالهم بتفريعات لا رصيد لها من التطبيق في الواقع.

وكان من نتيجة هذا المسلك، أن حصل خلل في جوانب كثيرة من المجتمع، بسبب الجهل بترتيب الأولويات.

مع الصوفية:

ويرى الإمام الغزالي أن انحرافات الصوفية كثيرة كثيرة، وهو يرجعها إلى عامل واحد، هو: «اشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم»[2]. الأمر الذي سهل على الشيطان أن يخدعهم، ويتلاعب بهم كما يحلو له. وما ذاك إلا نتيجة لمخالفتهم الترتيب في مراعاة المأمورات.

مع الأغنياء:

وكثير منهم يتركون ما هو أولى بهم، ويذكر لنا الغزالي نماذج منهم:

● فريق منهم يحرصون على إنفاق المال في الحج، فيحجون مرة بعد أخرى، وربما تركوا جيرانهم جياعاً.

قال أبو نصر التمار: إن رجلاً جاء يودع بشر بن الحارث،

(١) المصدر نفسه ٢/٣٤٢.
(٢) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٥.

وقال: قد عزمت على الحج فتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم. قال بشر: فأي شيء تبتغي بحجك: تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت، أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتغاء مرضاة الله. قال: فإن أصبت مرضاة الله تعالى، وأنت في منزلك، وتنفق ألفي درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى، أتفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: اذهب فأعطها عشرة أنفس: مديون يقضي دينه، وفقير يرم شعثه، ومعيل يغني عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك أن تعطيها واحداً فافعل، فإن إدخالك السرور على قلب المسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقوى في قلبي، فتبسم بشر رحمه الله وقال: المال إذا جمع من وسخ التجارات والشبهات، اقتضت النفس أن تقضي به وطراً، فأظهرت الأعمال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

● وبعضهم يمسكون الأموال بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية، كصيام النهار، وقيام الليل، وختم القرآن.. وهم مغرورون.

وقد قيل لبشر: إن فلاناً الغني، كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله ودخل في حال غيره، وإنما حال هذا إطعام الطعام للجياع، والإنفاق على المساكين، فهذا أفضل له من تجويعه لنفسه، ومن صلاته[1].

(١) إحياء علوم الدين ٣/٤٠٩.

وهكذا كما قال بشر ـ رحمه الله ـ فإن الكثير من الناس يتركون ما ينبغي أن يكونوا فيه، ويدخلون في حال غيرهم، وهو سبب من أسباب التخلف . .

الوقت:

الوقت هو حياة الفرد، التي تتقضىٰ مع مروره. وهو العامل الأساسي في بناء حضارة الأمة.

ولهذا كان أثمن شيء يمتلكه الفرد، وهو أثمن ما تمتلكه الأمة.

ويعطي الغزالي لهذا العامل مكانته، فهو يؤكد دائماً على اغتنامه، وأن ينفق في إنتاج الأحسن مما يتقنه كل فرد. وبهذا تكون الاستفادة منه قد بلغت حدها الأقصى.

فالذي يتقن عملين، أحدهما أعلى مكانة، وأكثر مردوداً ـ كماً أو كيفاً ـ فمن الخسارة أن يعمل ويشغل وقته بالأدنى، الذي قد يكون بالنسبة إلى غيره هو العمل الأعلى . .

بهذه النظرة الدقيقة المتفحصة يضع الغزالي برنامج الوصول بالأمة في طاقاتها الإنتاجية ـ مادية ومعنوية ـ إلى الحد الأعلى.

وهي نظرة لم يسبق إليها ـ فيما أعلم ـ في عالم الاقتصاد أو عالم الفكر . .

● ونسوق المثال الذي وضعه لبيان ذلك:

إن بعض الناس لا يثق بأن يغسل له غيره ثيابه، خوفاً من عدم تطهيرها كما ينبغي. ولا أرى للعالم ولا للمتعلم ولا للعامل أن

يضيع وقته في غسل الثياب . . توهماً بالقصار تقصيراً في الغسل. فلو وجد العالم عامياً يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل . .

فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثل الغسل فيبقى وقته محفوظاً عليه . . والعامي قد يكون شغله بذلك شغلاً لوقته بالخير فإنه يشغل وقته بمباح فيكون بعيداً عن المعاصي، والنفس إن لم تشغل بشيء شغلت صاحبها . .

قال الغزالي: «وليتفطن بهذا المثل لنظائره من الأعمال، وترتيب فضائلها، ووجه تقديم البعض منها على بعض»[1].

ثم بين أن أهمَّ الأمور في حياة الإنسان، هو «تدقيق الحساب في حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل . .».

تلك هي النظرة الدقيقة في توجيه الأمة إلى ما فيه صلاحها، وذلك نتاج للملكة الفقهية التي يمتلكها الإمام الغزالي . . التي يقدرها له أمثاله من العلماء الفقهاء حتى قال الإمام ابن السبكي عن كتاب الإحياء: لا أعرف له نظيراً في الكتب التي صنفها الفقهاء الجامعون في تصانيفهم بين النقل والنظر والفكر والأثر[2].

● ويرى الغزالي أن الإنسان ما لم يضبط نفسه ببرنامج يحفظ عليه وقته، فإنه يعرض نفسه للضياع.

---

(١) المصدر نفسه ١/١٢٧ ـ ١٢٨.

(٢) شرح الإحياء للزبيدي ١/٢٧.

ومن هذا القبيل وضع برنامجاً يستغرق ساعات اليوم - في النهار والليل - من الأوراد وعمل الخيرات. .

وقد انتقد على ذلك، بحجة أنه يريد أن يشغل الناس بالأوراد كل أوقاتهم. ولكنهم غفلوا أنه يقول: «إنما وضعته لمن لا شغل له أصلاً، ولو ترك العبادة لجلس بطالاً»(١). فكان ذاك البرنامج مساعداً لمثل هذا الإنسان على الاستفادة من وقته.

● والمثال الأخير الذي نضعه بين يدي القارىء في ميدان مفهوم الوقت عند الغزالي، هو ما نقله الإمام ابن الجوزي عن زيارة أحد الوزراء للغزالي:

فقد زار الوزير أنو شروان الغزالي في بيته تكريماً له وإقراراً بمنزلته. . ولكن أبا حامد قال له: زمانك محسوب عليك، وأنت كالمستأجر (أي من قبل الأمة) فتوفرك على ذلك أولى من زيارتي (٢).

إنها مفاهيم السلف يعيدها أبو حامد - رحمه الله - إلى واقع الحياة.

(١) إحياء علوم الدين ٣٤٨/١.
(٢) المنتظم لابن الجوزي ١٧٠/٩.

الفصل الخامس

الإصلاح الاجتماعي

الإصلاح الفكري: . . .

إصلاح «العلماء» الذين هم أداة التوجيه في الأمة.

تجديد صياغة الفقه الذي هو المنهج الفاعل في حياة الأمة.

تحول أصول الفقه إلى واقع عملي في «فقه الأولويات».

تلك أركان كبرى في الإصلاح الاجتماعي الذي دعا إليه الإمام الغزالي، وقد سبق الحديث عنها في الفصول السابقة، وهي كافية في تصوير الجهد الذي بذله الإمام في سبيل الإصلاح.

ومع ذلك فإنا نتناول في هذا الفصل جوانب أخرى مما دعا إليه الإمام، بعضها يرتقي إلى مستوى القواعد العامة، وبعضها يتناول زوايا ميتة - كما يقال - لم تلفت نظر غيره، ولكنها استوقفته فأمعن فيها النظر ثم تحدث عنها. .

إنه الرجل المشفق على المسلمين، الساعي لمصلحتهم، ومن كان كذلك، لم تكن الكليات لتشغله عن الجزئيات، فقد يئس الشيطان أن يعبد في أرض المسلمين - كما أخبر الصادق

المصدوق[1] - ولكنه رضي بما دون ذلك. وما رضي به فربما كان خروقاً صغيرة.. ثم تتسع حتى يصعب على الراقع القيام حيالها بأي عمل.

فإلى بعض هذه الجوانب:

الاكتفاء الذاتي:

يرى الإمام الغزالي أن كل بلد من بلدان المسلمين، ينبغي أن تتوفر فيه الحاجات الضرورية، والحاجية لكل مسلم.

ولذا كان وجود من يقوم بهذه الخدمات من فروض الكفايات. وذلك: «كالطب: إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان. وكالحساب، فإنه ضروري في المعاملات، وقسمة الوصايا والمواريث وغيرهما..

وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها حرج أهل البلد، وإذا قام بها واحد كفى، وسقط الفرض عن الآخرين».

ويقدر الإمام الغزالي أن الناس سوف يتعجبون من قوله: إن الطب والحساب من فروض الكفايات. وذلك أمر لم يطرق أسماعهم من قبل، وكل ما سمعوه عن أمثلة فروض الكفايات إنما يتعلق بأمور العبادات: كصلاة العيدين، وصلاة الجنازة.. فإذا قام به البعض سقط الإثم عن الآخرين..

(١) جاء في الحديث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي منكم بما تحقرون» رواه الإمام أحمد - واللفظ له - ومسلم وغيرهما [المسند ٢/٣٦٨، ومسلم رقم ٢٨١٢].

ولذلك يوضح الغزالي ذلك بقوله: «فلا يتعجب من قولنا: إن الطب والحساب من فروض الكفايات، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات: كالفلاحة، والحياكة، والسياسة، بل والحجامة والخياطة، فإنه لو خلا البلد عن الحجام تسارع الهلاك إليهم وحرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك، فإن الذي أنزل الداء، أنزل الدواء، وأرشد إلى استعماله، وأعد الأسباب لتعاطيه..»[1].

ويبين أن الفرضية لا تسري إلى كل الأعمال، فما كان من الصنعات زيادة على القدر المحتاج إليه فهو من باب الفضيلة لا الفريضة.

ونخلص مما تقدم: إلى أن الغزالي يضع ضابطاً لهذا الاجتهاد:

- فما كان من العلوم والصناعات، به قوام أمور الدنيا وهو ضروري في حاجة بقاء الأبدان فهو من فروض الكفايات.

- وما كان منها متعلقاً بما هو زائد على الضروري فهو من باب الفضيلة: كالتعمق في دقائق الطب ودقائق الحساب وغير ذلك.

وبهذا تتأمن حاجات المسلمين بأيدي المسلمين ولا يحتاجون إلى غيرهم.

ومن هذا المنطلق كان نكيره على العلماء الذين انكبوا على تعلم العلوم الشرعية، وذهبوا يضيعون وقتهم بتفريعات لا طائل تحتها. ثم تركوا ميادين أخرى - كميدان الطب - لغير المسلمين،

(١) إحياء علوم الدين ١/١٦.

واعتبر ذلك تركاً لفرض كفاية، وكل بلد ليس فيها طبيب مسلم، فجميع القادرين على تعلم الطب آثمون. وفي هذه الحالة يكون تعلم الطب أفضل عند الله من تعلم الفقه إذا كان في البلد من يفي بحاجة الفقه[1].

وهكذا في كل ميادين العمل والصناعة والعلوم.

لقد آلم الغزالي أن يعزف المسلمون عن بعض المهن، مما يجعلها حكراً على غيرهم، فإذا احتاجوا إليها وجدوا أنفسهم تحت رحمة غيرهم، والله تعالى يقول: ﴿ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾[2].

ونعجب كيف أن المسلمين لم يستفيدوا من فكر الغزالي في هذا الجانب، فإن تخلفهم في كثير من ميادين الحياة يرجع إلى ما اكتشفه من إقبالهم على بعض المصالح دون بعض، مما يخل بالتوازن.

وهذا الخلل له تأثيره بالحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والفكرية، كما هو واضح ولا يريد الغزالي أن يكون لغير المسلمين الفضل في أي من هذه الجوانب. فاليد العليا خير من اليد السفلى.

رفض الظلم:

ويذهب الإمام الغزالي في ميدان الإصلاح الاجتماعي، إلى

---

(١) سبق الحديث عن ذلك في الفصل السابق، وانظر إحياء علوم الدين ٢١/٢.
(٢) سورة النساء، الآية ١٤١.

القول بترك نافلة الحج إذا كان ذلك يضطر الحاج إلى دفع الضرائب التي وضعها أمراء مكة على الحجاج ويرى في دفع هذه الضرائب مساهمة في مفاسد عديدة:

١ ـ الإعانة لهم على الظلم.

٢ ـ الاستمرار في دفعها يجعلها سنة مطردة.

٣ ـ الانقياد لها يجعل المسلمين في موقف الذل والصغار، فكأنهم يبذلون الجزية.

وإزاء هذه المفاسد، يستحسن رأي بعض الفقهاء، ويرى معهم أن الرجوع عن الحج إذا كان نفلاً هو الأفضل، حتى لا يساهم بإعانة الظالمين بماله، فإن المساعدة بالمال كالمساعدة بالنفس.

أما هذا الذي رجع ولم يكمل حجه من أجل ذلك، فمجالات عمل الخير كثيرة، وربما كان بعضها مقدماً على حجة النفل. ولنستمع إلى قول الغزالي في ذلك:

«أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسليم المكس، وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة، والأعراب المترصدين في الطريق. فإن تسليم المال إليهم إعانة على الظلم، وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس.

فليتلطف في حيلة الخلاص، فإن لم يقدر، فقد قال بعض العلماء ـ ولا بأس بما قاله ـ : إن ترك التنفل بالحج، والرجوع من الطريق، أفضل من إعانة الظلمة.

فإن هذه بدعة أحدثت، وفي الانقياد لها ما يجعلها سنة مطردة، وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل الجزية.

ولا معنى لقول القائل: إن ذلك يؤخذ مني وأنا مضطر، فإنه لو قعد في البيت، أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء..»[1].

إن دفع الضرر مقدم على جلب المنفعة كما تقول القاعدة الأصولية، حتى ولو كانت هذه المنفعة عبادة نافلة في رأي أبي حامد رحمه الله.

ومن الظلم ـ أيضاً ـ «أن يدعو للظالم أو يثني عليه، أو يصدقه فيما يقول من باطل ـ بصريح قوله، أو بتحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه ـ أو يظهر له الحب والموالاة، والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول عمره وبقائه..».

ويستشهد بقول الحسن البصري: «من دعا لظالم بالبقاء، فقد أحب أن يعصى الله في أرضه».

ثم قال: «فإن جاوز الدعاء إلى الثناء، فيذكر ما ليس فيه، فيكون به: كاذباً ومنافقاً ومكرماً لظالم. وهذه ثلاث معاصٍ...»[2].

أرأيت كرهاً للظلم، ومحاربة له، أكثر مما فعله الغزالي؟!![3].

---

(1) إحياء علوم الدين ٢٦٢/١.

(2) إحياء علوم الدين ١٤٤/٢.

(3) عاب بعض المعاصرين على الغزالي: إغفال المصلحة العامة للمجتمع المسلم، وللأمة الإسلامية، ومنهم الدكتور محمد يوسف موسى ـ رحمه الله ـ الذي وجه إليه نقداً عنيفاً في كتابه (فلسفة الأخلاق في الإسلام) ومما قاله: «نعتقد أن الغزالي لم يكن ـ وهو يكتب في مذهبه الأخلاقي ـ يعنيه الصالح =

محاربة المنكرات:

يعقد الغزالي في «الإحياء» كتاباً خاصاً «للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»، ويقسم فيه المنكرات إلى قسمين: منكرات محظورة والسكوت عليها حرام، ومنكرات مكروهة والسكوت عليها مكروه.

وفي جولة واسعة النطاق يتحدث عن:

منكرات المساجد.

منكرات الأسواق.

منكرات الشوارع.

منكرات الضيافة.

المنكرات العامة.

ونكتفي بذكر نموذج مما ذكره في منكرات الشوارع.

ـ منها: وضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على

= العام.. فكان مذهبه بذلك مذهباً فردياً لا اجتماعياً». ونقطة ارتكاز الهجوم هي أخذ الغزالي بالزهد والتوكل. [انظر: الغزالي بين مادحيه وقادحيه للقرضاوي ص ١٦٠ ـ ١٦٥].

وما ذكرناه في هذا الفصل وفي غيره من هذا الباب كاف في الجواب على ما ذهب إليه هؤلاء بل إن الزهاد الحقيقيين هم أقدر الناس على الإصلاح، فلا يرهبهم سلطان ولا يخيفهم ملك لإيمانهم تمام الإيمان: بأن لا إله إلا الله فلا خضوع لأحد إلا بميزان الشرع، وهذا مما يغضب السلطان. وبهذا علل صاحب ظهر الإسلام تحيز السلاطين دائماً ضد الزهاد لما يرون منهم من صدق القول في النقد [ظهر الإسلام ٦٢/٢].

الطرق، فكل ذلك منكر إن كان يؤدي إلى تضييق الطرق، واستضرار المارة. ويجوز وضع ذلك بالقدر الذي ينقل إلى البيوت..

ـ وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق، وينجس المجتازين.

ـ وكذلك ذبح القصاب، إذا كان يذبح في الطريق حذاء باب الحانوت، ويلوث الطريق بالدم، فإنه منكر، يمنع منه، بل حقه أن يتخذ في دكانه مذبحاً، فإن في ذلك تضييقاً بالطريق، وإضراراً بالناس بسبب ترشيش النجاسة، وبسبب استقذار الطباع للقاذورات..

ـ وكذلك طرح القمامة على جوادّ الطرق، وتبديد قشور البطيخ.

ـ ومن ذلك إرسال الماء من الميازيب المخرجة من الحائط..[1].

ومن هذه النماذج نستطيع تصور الشكل الجمالي الذي كان في ذهن الغزالي لما ينبغي أن تكون عليه الحياة العامة..

---

(١) إحياء علوم الدين ٢/٣٣٩.

خاتمة

وبعد:

فقد كانت تلك جولة في رياض الإمام الغزالي، حاولت أن أقدم من خلالها للقارىء الكريم من كل روضة باقة، فلعل هذه الباقات تمثل له رياضها في صفاء ألوانها، وفن تناسقها، كما تنقل له عبقها وأريجها.

رحم الله الإمام الغزالي، فقد كان علماً من الأعلام، بل كان علماً في كل علم خاض غماره أو تناوله بالبحث..

نفعنا الله بعلمه، ويسر لنا الإفادة من سيرته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس